بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الحكم لأبي الفتح البستي

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد

[شرح مفرغ من دروس ثلاث ألقاها الشيخ]

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

هذه قصيدة نافعة، ومفيدة ومليئة بالحِكم المتنوعات والتوجيهات النافعات، والإرشادات المسددات، في الأخلاق والآداب وأعمال القلوب، مما يتحقق من العناية بها فهما وعملا، نفع عظيم، وثمار كبيرة، وهي تُعرف بعنوان الحكم، لما اشتملت عليه من الحكم العظيمة البالغة، النافعة المفيدة

نظمها شاعر مجيد، وعالم له مكانته، واعتباره، قال عنه الذهبي رحمه الله (شاعر وقته وأديب ناحيته) وهو أبو الفتح علي ابن محمد ابن الحسين البستي المولود عام 330هـ والمتوفى عام 400هـ

وهذه المنظومة اعتنى بها منذ القدم طلاب العلم حفظا ومذاكرة، وعقدت مجالس لتذاكر مضامينها، والعنأية بالحكم العظيمة التي اشتملت عليها

وسنقرأ من هذه المنظومة ونعلق على أبياتها ما تيسر، سائلين الله تبارك وتعالى أن ينفعنا أجمعين، وأن يوفقنا لأحسن الأخلاق، وأن يهدينا إليها لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيء الأخلاق، لا يصرف عنا سيئها إلا هو.

يقول العلامة أبو محمد علي بن محمد بن الحسين البستي رحمه الله تعالى في عنوان الحكم :

بسم الله الرحمن الرحيم

زِيادَةُ المَرءِ في دُنياهُ نقصانُ...... وربْحُهُ غيرَ محض الخَيرِ خُسرانُ

وَكُلُ وِجدانِ حَظٍّ لا ثَباتَ لَهُ...... فإنَّ مَعناهُ في التَّحقيقِ فُقْدانُ

يا عامِراً لخَرابِ الدَّهرِ مُجتهِداً...... باللهِ هل لخَرابِ العمرِ عُمرانُ

ويا حَريصاً على الأموالِ تَجمَعُها...... أُنْسيتَ أنَّ سُرورَ المالِ أحْزانُ

زَعِ الفؤادَ عنِ الدُّنيا وزينتها......فصَفْوُها كَدَرٌ والوَصلُ هِجْرانُ

وأَرعِ سَمعَكَ أمثالاً أُفَصِّلُها...... كما يُفَصَّلُ يَاقوتٌ ومَرْجانُ

زيادَةُ المرءِ في دُنياهُ نقصانُ...... وربْحُهُ غَيرَ محضِ الخَيرِ خُسرانُ

بدأ الناظم رحمه الله تعالى بقوله (زيادَةُ المرءِ في دُنياهُ نقصانُ *** وربْحُهُ غَيرَ محضِ الخَيرِ خُسرانُ)

أي أن المرء إذا كانت أرباحه أرباحا دنيوية بحتة، لا اهتمام له بالآخرة، ولا عناية له بها، الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، فهذه الأرباح التي يحصلها والزيادات، ثراء وكثرة، في المال وسعة فيه، هو في حقيقة الأمر نقصان

زيادَةُ المرءِ في دُنياهُ نقصانُ...... وربْحُهُ غَيرَ محضِ الخَيرِ خُسرانُ

أي كل الأرباح التي يحصلها، إن لم تكن محض الخير، أي الخير الخالص فهي خسران، لأنها إما زائلة أو صاحبها زائل عنها، بينما محض الخير وهو أعمال البر وصنوف الطاعات التي يتقرب بها المسلم إلى الله عز وجل، ووجوه الإحسان فهذه تُعدّ زيادة لا نقصانا، ورفعة للعبد، في دنياه وأخراه، والناظم رحمه الله تعالى ينبه بهذا البيت الذي استهل به هذه القصيدة، قصيدة الحكم، على أن الواجب على المسلم أن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه، فلا يهتم إلا بها ولا يشتغل إلا لأجلها، ولا يعمل إلا لتحصيلها، فمن كان بهذه الصفة، فكل زيادة يحصلها وكل ربح يجده هو في الحقيقة نقصان، إلا ما كان محض الخير من أنواع البر وصنوف الطاعات، التي كلما ازداد منها العبد، زاد علوا وفضلا ورفعة ونبلا

وقد جاء في الحديث في مسند الإمام أحمد، وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتكم)، فتأمل كيف أن الدنيا تنافس عليها والهمة مشتغلة بها فقط متجهة إليها، كيف أنها سبيل هلكة، وهو المعنى الذي عبر عليه الناظم بقوله (نقصان) أي أنها تصل بصاحبها إلى النقصان، والهلكة

قال:

وكُل وِجدانِ حَظٍّ لا ثَباتَ لَهُ...... فإنَّ مَعناهُ في التَّحقيقِ فُقْدانُ

كل وجدان، يقال: وجد يجد وجدانا، الشيء يبحث عنه الإنسان فيجده، يحصله، فتحصيله للشيء الذي يبحث عنه يقال عنه وجدان، فكل وجدان أي كل تحصيل للحظوظ والأطماع والرغبات وما يريده الإنسان، كل وجدان حظ لا ثبات له، أي لا يثبت معك، ولا يبقى ولا يدوم، فإن معناه في التحقيق فقدان، لأنك وإن حصّلت، وقتا ما وفترة معينة، لن يدوم لك ولن يبقى معك، فإذن كل وجدان، أي كل تحصيل لحظ من الحظوظ، ومطلب من المطالب، من صفته أنه لا ثبات له، يعني لا يبقى معك ولا يدوم لك فإن معناه في التحقيق فقدان

وكأنه يشير بذلك إلى مثل هذه الدنيا، في كل المكتسبات التي يحصلها الإنسان، أو يناله من أمور الدنيا، البحتة، وقد قال الله تعالى {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا }[الحديد-20]

فإذن كل ما يحصله العبد ويجده مما لا ثبات له، ولا بقاء ولا دوام له، فإنه في التحقيق فقدان أي باعتبار أن هذا الذي سيؤول إليه أمره

وفي القران يقول الله عز وجل {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

خَيْرٌ وَأَبْقَى }[الحديد-131]، تأمل سبحان الله قوله {زهرة الحياة الدنيا} يعني كل ما عندهم وكل ما حصلوه اختصر في هذا المثل الكاشف لحقيقة الأمر {زهرة الحياة الدنيا}والزهرة كما لا يخفى تكون لها النضارة في وقت ما ثم سرعان ما تذبل وتنتهي، فهو مثل عجيب جدا، {زهرة الحياة الدنيا} الزهرة لها نضارة في وقت ما ثم سرعان ما تذبل تلك الزهرة وتنتهي

يا عامِراً لخَرابِ الدَّهرِ مُجتهِداً...... باللهِ هل لخَرابِ العمر عُمرانُ

(يا عامرا لخراب الدار) وفي بعض النسخ (الدهر) (مجتهدا) يعني في هذه الدنيا الفانية يعني منشغلا بعماراتها منصرفا عن عمارة الآخرة، فأصبح اهتمامك منصبا على عمارة هذه الدنيا

فيقول ناصحا من كانت هذه حاله (يا عامرا لخراب الدار - أو الدهر- مجتهدا) يعني في عمارة هذه الدنيا التي مآلها إلى الخراب ونهايتها إلى الفناء (بالله هل لخراب العمر عمران) أي أنك باشتغالك بعمارة الدنيا وفي الوقت نفسه منصرفا عن عمارة الآخرة أنت في حقيقة الأمر تعمل على خراب عمرك، تبني دنياك وتخرب عمرك، فيقول منبها (هل لخراب العمر عمران) يعني هل من يعمل على خراب عمره هل هو في الحقيقة يعمر أو يهدم؟

ويا حَريصاً على الأموالِ تَجمَعُها...... أُنْسِيتَ أنَّ سُرورَ المالِ أحْزانُ

(ويا حريصا على الأموال تجمعها) أي كانت هي شغلك الشاغل، واهتمامك البالغ (أنسيت أن سرور المال أحزان) يعني هل انكبابك على جمع المال، وانصرافك بكليتك إليه هل أنسيت أن سرور المال أحزان، يعن اللذة التي يحصلها المرء في تحصيله للأموال والملذات التي أيضا تكتنف ذلك، أنسيت أنها أحزان؟ أي فيما تؤول إليه وتفضي بصاحبها إليه، وهو ينبه هنا رحمه الله على الحال التي يؤول إليها من كان بهذه الصفة حريص على المال، والمال هو أكبر همه ولو كان على حساب دينه لا يبالي، والنبي صلى الله عليه وسلم ضرب لنا في هذا الباب مثلا عجيبا رواه الإمام أحمد في المسند وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) كيف يكون الأمر لو جيء بذئبين جائعين ووضعا في زريبة غنم، كيف ستكون ويصير حال تلك الغنم في تلك الزريبة، مع وجود هذين الذئبين الجائعين، ومعلوم أن الذئب إذا هجم على الأغنام لا يكتفي بأخذ واحدة منها، يأكلها ويمضي، بل معروف بالإفساد يأكل ويفسد، يقتل هذه ويجرح هذه ويصيب تلك، فلو وضع ذئبان جائعان في زريبة غنم ستكون الغنم جميعها ما بين قتيل وجريح، وفي الغالب لن يسلم منها واحدة

فهذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للشخص الذي انصب حرصه على المال والشرف، وصار هذا اهتمامه ومطلبه في هذه الدنيا المال أو الشرف، رئاسة أو زعامة إلى غير ذلك

فحرصه على المال وحرصه على الشرف رئاسة وزعامة وغير ذلك لا يبالي معها بما خرب من دينه وضاع من تقربه لربه، فكما أن الذئبين الجائعين يفسدان في الغنم، أعظم إفساد، إذا جُعلا معها في زريبة، فمثل هذا عندما يكون قلب الإنسان منصبا في اهتمامه على جمع المال وتحصيل الشرف، فهذا يترتب عليه من الآثار الكثيرة في ضياع دينه وفساد أيمانه.

زَعِ الفؤادَ عنِ الدُّنيا وزينتها......فصَفْوُها كَدَرٌ والوَصلُ هِجْرانُ

ثم يقول رحمه الله ناصحا (زع الفؤاد عن الدنيا) ومعنى (زع) أي كف (زع الفؤاد عن الدنيا) أي كفه عن الدنيا، كف قلبك عن الانصراف إلى الدنيا والانكباب عليها امنعه من ذلك

(زع الفؤاد عن الدنيا وزينتها*** فصفوها كدر والوصل هجران) صفو الدنيا كدر، لأن كل ما يحصله الإنسان من أمور الدنيا كدر في تحصيله وأيضا كدر في الخوف من فقده (فصوفها كدر والوصل هجران) الوصل أي القرب من كل شيء منها هو في الحقيقة هجران

وهو بهذا البيت والأبيات التي قبله يحذر من الانكباب على الدنيا، والانشغال بها وأن تكون الدنيا هي مبلغ علم الإنسان وغاية مقصوده، ولا يعني ذلك تعطيل الانتفاع بالمباح منها، أو تعطيل كسب الرزق، وفي الدعاء قال عليه الصلاة والسلام (اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا)، فهذا الذي يُذم أن تكون الدنيا أكبر هم الانسان ومبلغ علمه، أما كون الإنسان يأخذ نصيبا من الدنيا لا يشغله على الآخرة ولا يصرفه عن الاهتمام بما خلق له، بل يجعله عونا له على ما خلق لأجله وأوجد لتحقيقه فهذا يحمد ويؤجر عليه، ويدخل في عمل العبد الصالح، إذا احتسب في كسب الرزق وتحصيل المال أن يكف نفسه عن الحاجة إلى الناس، وأن -أيضا- يتحقق بذلك غنى أهله وأولاده، وعدم احتياجهم (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) فهذا كله لا يذم لكن الذي يذم، هو انكباب المرء على الدنيا وجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ...... فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

يا خادمَ الجسم كم تشقى بِخدمته...... أتطلب الربح فيما فيه خسران]

[أقبل على النفس واستكمل فضائلها...... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان]

وإنْ أساءَ مُسيءٌ فلْيَكنْ لكَ في...... عُروضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وغُفرانُ

وكُنْ على الدَّهرِ مِعواناً لذي أمَلٍ...... يَرجو نَداكَ فإنَّ الحُرَّ مِعْوانُ

واشدُدْ يَدَيكَ بحَبلِ اللهِ مُعتَصِماً...... فإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْكَ أركانُ

مَنْ يَتّقِ اللهَ يُحْمَدُ في عَواقِبِه...... وَيكفِهِ شَرَّ مَنْ عزُّوا ومَنْ هانُوا

مَنِ استعانَ بغَيرِ اللهِ في طَلَبٍ...... فإنَّ ناصِرَهُ عَجزٌ وخِذْلانُ

[من كان للخير منّاعا فليس له...... على الحقيقة إخوان وأَخدانُ]

مَنْ جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطِبَةً...... إلَيهِ والمالُ للإنسانِ فَتّانُ

مَنْ سالَمَ النّاسَ يسلَمْ من غوائِلِهِمْ...... وعاشَ وَهْوَ قَريرُ العَينِ جَذْلانُ

مَنْ كانَ للعَقلِ سُلطانٌ عَلَيهِ غَدا...... وما على نَفسِهِ للحِرْصِ سُلطانُ

مَنْ مَدَّ طَرْفاً لفَرطِ الجَهلِ نحو هَوى...... أغضى على الحَقّ يَوماً وهْوَ خَزيانُ

يقول رحمه الله

وأَرعِ سَمعَكَ أمثالاً أُفَصِّلُها...... كما يُفَصَّلُ يَاقوتٌ ومَرْجانُ

أي بعد هذه التقدمة في التحذير عن الانكباب على الدنيا والافتتان بها وجعلها أكبر هم الانسان، بعد تحذيره رحمه الله من ذلك، بدأ يصوغ حكما وينثر وصايا عظيمة، في أبيات، كل بيت منها بمفرده، يحمل حكمة عظيمة ووصية نافعة وبدأ أول ما بدأ باسترعاء الاهتمام، والحث على الانتباه، لهذه الوصايا بقوله : (وأرع سمعك أمثالا أفصلها *** كما يفصل ياقوت ومرجان) لا يمدح نفسه ولا يمدح أيضا شعره، ولكنه يستحث السامع ويستنهض الهمم لحسن الاستفادة وجميل الانتفاع، ولهذا يقول (وأرع سمعك) أي اسمع بإنصات وتأمل وعناية دقيقة بفهم ما يقال لك، فإن في ذلك نفعا عظيما، وفائدة كبيرة

(وأرع سمعك أمثالا أفصلها ***كما يفصل ياقوت ومرجان)

والياقوت والمرجان نوعان من الحلي والجمال والزينة

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ...... فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

بدأ أولا بالحث على الإحسان، بكل وجوه الإحسان، القولي والفعلي، والإحسان أمر الله جل وعلا به العباد وعد عليه عظيم الثواب {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[البقرة-195] فالناظم يحث على الإحسان (أحسن إلى الناس) أي بما تستطيع أن تحسن إليهم به، وهذا ندبت إليه الشريعة وحث عليه الإسلام في نصوص كثيرة جدا

قال (تستعبد قلوبهم) أي بإحسانك إليهم يحصل من آثار ذلك وثماره أن تستميل قلوبهم وتستلطفها وتستعطفها، بحيث لا تكون معك فضة ولا غليظة، بل تكون معك في أجمل ما يكون، من تعامل وأدب وتقدير، (تستعبد قلوبهم) أي يكونوا لك بسبب إحسانك إليهم مثل حال العبيد أي من حيث الاحترام والتقدير والتوقير ونحو ذلك

(فطالما استعبد الانسان إحسان) أي كثيرا ما كان ذلك، أن استعبد الانسان إحسان الآخرين إليه، ومراد الناظم من هذا البيت واضح أن الإحسان إلى الآخرين فيه ثمار ومن ثماره، أن من تحسن إليه لا ينسى معروفك ولا يغيب عنه إحسانك فيذكرك بالجميل ويعاملك بالحسنى، ويحترمك ويعرف لك إحسانك هذا هو مراده من حيث الجملة

لكن البيت بهذه الصياغة التي أوردها رحمه الله تعالى عليه انتقاد من عدة وجوه

أما الأول فمن جهة التعبير بقوله (تستعبد قلوبهم) وقوله (استعبد الانسان) فالعبارة هنا ليست سديدة ولا يناسب التعبير لمثل ذلك وإنما يقال (تستلطف) أو (تستميل) أو (تكسب) أو نحو ذلكم من العبارات، حتى وإن كان معنى العبودية ليس مقصودا، لكن تجنب العبارة مطلوب

ثانيا أن من يحسن إلى الناس، ليس هذا مقصوده وإنما مقصوده الفوز برضا الله، وثوابه، فالإحسان إلى الناس قربة من القرب، وباب من أبواب اكتساب الثواب، فمن يحسن إلى الناس لا يحسن إليهم لأجل هذا الأمر وإنما يحسن إليهم طلبا لرضا الله {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا }[الانسان-9] ثم تأتي الآثار والثمار، تباعا، ليست أصالة ولا قصدا، قصد الانسان بإحسانه إلى الناس أن يفوز برضا الله، وقد مرت معنا الآية الكريمة {وَأَحْسِنُوا

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[البقرة-195] فهو يحسن لأن الله يحب المحسنين، يحسن إلى الناس لأن الله يحب من يحسن إليهم،ويحسن إلى الناس يريد أن يرضى ربه عنه، ويريد من الله أن يثيبه على ذلك، لا يحسن إليهم من أجل أن يستميل قلوبهم أو غير ذلك وإن كانت تأتي تلك الأشياء تبعا لا أصالة وقصدا

ثالثا أن الأمر من حيث واقع الناس، فالناس معادن، منهم من ينفع فيه الإحسان، ويفيد فيه الجميل فلا ينسى جميلا ولا ينكر إحسانا ومعروفا، ومن الناس من سرعان ما ينسى الجميل، وينكر ما عليه من معروف لما طبع عليه من لؤم، فإذا كان يحسن إلى الناس ليستميل قلوبهم، سيصادف في الناس أناسا ذوي أكباد غليظة وذوي طبع لئيم فلا يستميله إحسان ولا يؤثر فيه معروف، إذا كان هذا قصده سيصدم، بينما إذا كان قصده التقرب إلى الله عز وجل لا يبالي في أثر ذلك في الناس من حيث تقديرهم له، أو اعترافهم بجميله أو ذكرهم لإحسانه لا يبالي بذلك لأنه ما قصد هذا أصلا، وإنما قصد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وطلب رضاه جل في علاه

ثم قال

يا خادمَ الجسم كم تشقى بِخدمته...... أتطلب الربح فيما فيه خسران

في هذا البيت يذم من كانت حاله الاهتمام بخدمة نفسه من الناحية البدنية، فيعتني بخدمة نفسه من حيث الناحية البدنية من حيث المظهر من حيث الصورة من حيث الشكل، ولا يبالي بالاهتمام بنفسه من حيث روحه وفؤاده وزكاء نفسه، وصلاح قلبه، هذا لا يهتم به، اهتمامه بالظاهر وأما الباطن فهو غير مهتم به، فيقول لمن كانت هذه صفته، يا خادم الجسم وهو يقصد من كانت له مبالغة في خدمة الجسم، (كم تشقى لخدمته) و(كم) تأتي للتكثير، يعني كم تشقى لخدمته في تضييعك لأوقات كثيرة التي تنصب على الاهتمام بالمظهر دون المخبر

والله عز وجل عندما ذكر في القران الزينة الظاهرة قال {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [الأعراف-26] وفي الدعاء المأثور (اللهم زينا بزينة الأيمان واجعلنا هداة مهتدين) فإذا كان الإنسان يهتم بشكله ومظهره وهيأته ويضيع الحقيقة والمخبر فهو في الحقيقة إنما يحصل خسرانا ولهذا قال الناظم (أتطلب الربح فيما فيه خسران؟)

وهذا الاشتغال بالجسم الذي هذه نتيجته نظير ما ذكره في البيت الثالث (يا عامرا لخراب الدهر مجتهدا *** بالله هل لخراب العمر عمران) هذا نظيره ذاك في العمر عموما والدنيا عموما وهذا في الجسم، ومن الناس -فعلا- كما أشار الناظم من يهتم بصحته وبدنه ولا يهتم بدينه، وقد قيل قديما عجبا لمن يتجنب بعض الأطعمة المباحة خوف مضرتها، ولا يتجنب الذنوب خوف معرّتها، تجد بعض الأشخاص يقول :أنا عندي حمية، حمية من أطعمة مباحة لو أكل منها لا يأثم شرعا، ولا يضره إطلاقا في دينه، لكنه يقول من باب الحمية حفظا للبدن وحفظا للصحة فيتجنب أطعمة مباحة، خوفا على بدنه ثم لا يتجنب كثيرا من الذنوب، خوف معرتها، وهذا البدن الذي جنبه تلك الأطعمة المباحة خوفا عليه، ورغبة في الإحسان إلى البدن، من باب أولى أن يكون هذا الإحسان للبدن بتجنيبه الذنوب، لأنه إن لم يمنع البدن من الذنوب عذب عليها يوم القيامة، فمن الإحسان لهذا البدن أن يجنبه الذنوب، لأن إيقاع البدن في هذه الذنوب، موجب للعقوبة، بينما بعض الناس لا يفقه هذا الأمر فيشتغل بعمارة بدنه، ومظهره وهيئته وشكله، ولا يعتني أبدا بما يتعلق بعمارة دينه، وباطنه، وفي الحديث (إن الله لا ينظر إلى أموالكم ولا إلى صوركم وإنما ينظر إلى أعمالكم، وقلوبكم)

أو كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أقبل على النفس واستكمل فضائلها...... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ثم أتم رحمه الله المعنى السابق بقوله (أقبل على النفس) يعني يا هذا الذي انشغلت بخدمة البدن، أقبل على النفس واستكمل فضائلها، أي أدبها بالآداب الفاضلة والأخلاق الزاكية، والخلق الرفيع وزمها بزمام الشرع

(أقبل على النفس واستكمل فضائلها ***فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان)

لأن الحركة حركة الجسم، لعبا وقياما وقعودا وأكلا وشربا إلى غير ذلك هذه كلها يشترك مع الانسان فيها بهيمة الأنعام، لكن امتاز الانسان بهذه النفس العلية الرفيعة المتخلقة بالأخلاق الفاضلة، والآداب الزاكية تميز بذلك، ولهذا إذا ذهبت هذه المعاني على النفس أصبح مثل الأنعام بل أسوء حالا منها، كما قال الله تعالى {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا }[الفرقان-44]

وإنْ أساءَ مُسيءٌ فلْيَكنْ لكَ في...... عُروضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وغُفرانُ

هذا البيت يبين لك الطريقة المثلى في التعامل مع من يخطئ في حقك، ويسيء إليك، كيف تتعامل معه؟ ولاسيما تلك الزلة العارضة، لأن الزلة التي تكون من الناس

منها زلة عارضة، ومنها -لا- إساءات متواصلة، هذه لها حكم وتلك لها حكم، فهو يتحدث رحمه الله على الزلة العارضة، يعني شخص دائما يعاملك المعاملة الطيبة ولا ترى منه إلا الإحسان لكن في يوم من الأيام أخطأ معك في كلمة، انفلتت منه عبارة لا تناسب مقامك ولا تليق في حقك أو أساء إليك بفعل أو قصر في واجب من الواجبات التي ترى أنك جدير بأن تُعامل بها هذه تسمى زلة عارضة، لأنك تعرف هذا الشخص دوما، بالتعامل الكريم والخلق الفاضل لكنها زلة عارضة، فكيف يكون التعامل مع ما كان من هذا القبيل

يقول (وإن أساء مسيء فليكن لك في *** عروض زلته صفح وغفران) يعني مثل هذه الزلات قابلها بالصفح والغفران، {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }[آل عمران-134]، بينما إذا كان الشخص له صفة أخرى دائم الإساءة ودائم التجني ودائم العدوان، فهذا يعمل الانسان على كف أذاه، والسلامة من شره وعدوانه، هذا معنى قوله رحمه الله (وإن أساء مسيء فليكن لك في *** عروض زلته صفح وغفران)

وكُنْ على الدَّهرِ مِعواناً لذي أمَلٍ...... يَرجو نَداكَ فإنَّ الحُرَّ مِعْوانُ

(وكن على الدهر) أي على مر الأيام، (معوان) أي كثير العون، (لذي أمل) أي من يؤمل حاجة عندك، أو مطلبا من طريقك، (يرجو نداك) يعني يطمع في كرمك، وإحسانك، (فإن الحر معوان) الحر يطلق على ضد العبد الرقيق، ويطلق أيضا على الخيار من الناس، وهو المراد هنا، (فإن الحر معوان) أي خيار الناس هذه صفتهم، حريصون على معاونة الآخرين، ومساعدتهم.

واشدُدْ يَدْيكَ بحَبلِ الله مُعتَصِماً...... فإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خانَتْكَ أركانُ

(واشدد يديك بحبل الله معتصما) أي كما قال الله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }[آل عمران-103] وحبل الله قيل دينه، وقيل كتابه وقيل سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والأية تنتظم ذلك كله،(واشدد يديك بحبل الله معتصما) أي كن بحل الله معتصما مستمسكا به، محافظا عليه، معتنيا به، أشد العناية، (فإنه الركن) أي المرجع والملاذ والمعتمد (إن خانتك أركان) فالركن الوثيق والعروة الوثقى التي من استمسك بها نجا ومن حافظ عليها سلم، هو دين الله سبحانه وتعالى، والاعتصام بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

مَنْ يَتَّقِ الله يُحْمَدُ في عَواقِبِه...... وَيكفِهِ شَرَّ مَنْ عزُّوا ومَنْ هانُوا

ثم حث رحمه الله على التقوى وبين ثمرتها العظمى بقوله (من يتق الله يُحمد في عواقبه) أو (يحمَد في عواقبه) (من يتق الله) أي يحقق التقوى بأن يجعل بينه وبين ما يخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيه، وذلك بفعل الأوامر وترك النواهي، وهذه هي حقيقة التقوى وأحسن ما قيل في تعريفها قول طلق ابن حبيب رحمه الله :تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله خيفة عذاب الله.

يقول رحمه الله (من يتق الله يُحمد في عواقبه) أو (يحمَد في عواقبه)كلها صحيح، أي أنه سيفوز بالعواقب الحميدة والمآلات السعيدة كما قال الله تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }[الأعراف -128] وكما قال الله عز وجل {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ }[الطلاق-2-3] وكما قال الله تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا }[الطلاق-4]، فالذي يتقي الله سبحانه وتعالى يحمد العاقبة، لأن عاقبة المتقي حميدة في الدنيا والآخرة، (ويكفيه شر من عزوا ومن هانوا)، (ويكفيه) أي الله سبحانه وتعالى لان الله مع المتقين حافظا وناصرا ومؤيدا ومعينا، فمن يتقي الله يكفيه أي الله سبحانه (شر من عزوا ومن هانوا) يكفيه شر كل أحد، سواء كان هذا المسيء إليه صاحب عز و منعة وقوة، أو كان دون ذلك فالله يكفيه، شر كل ذي شر وشر كل دابة

مَنِ استعانَ بغَيرِ اللهِ في طَلَبٍ...... فإنَّ ناصِرَهُ عَجزٌ وخِذْلانُ

(من استعان بغير الله) أي طلب العون، من غير الله واعتمد قلبه على غيره، ملتجأ إليه، معتمدا عليه، فإن من كان بهذه الصفة يخذل، ويوكل إلى الشيء الذي اعتمد عليه، وفي الحديث (من تعلق شيئا وكل إليه) {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا }[الجن-6] فالذي يستعين بغير الله في طلب، (فإن ناصره عجز وخذلان) فهذا الذي سيحصله ممن طلب من جهته العون والنصر هو في الحقيقة عجز وخذلان

ثم قال:

من كان للخير منّاعا فليس له...... على الحقيقة إخوان وأَخدانُ

المناع هو البخيل الشحيح فمن كان بهذه الصفة مناعا للخير أي بخيلا شحيحا، مقترا لا ينفق مع ما آتاه الله ووسع عليه من المال والرزق، فمن كان بهذه الصفة فشأنه كما قال الناظم أنه (ليس له على الحقيقة إخوان وأخدان) أي لا يكون له إخوان وأخدان، والخدن الصديق، والصاحب، أي لا يكون له إخوة محبين له وأصدقاء أوفياء معه، كل هذا

لن يحصله (من كان للخير مناعا فليس له *** على الحقيقة إخوان وأخدان)

والناظم هنا ينبه على الآثار عندما يكون الانسان شحيحا بخيلا منوعا، لأن هذا قصد الانسان، أما الذي ينفق لا يكون قصده بالإنفاق أن يكون له إخوان وأخدان، وإنما يقصد بالإنفاق التقرب إلى الله، والفوز برضاه، سبحانه وتعالى، والإنفاق الذي يبذله شيء يقدمه، ليلقاه، يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، على حد قوله {وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ} [البقرة-223]

مَنْ جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطِبَة...... إِلَيهِ والمالُ للإنسان فَتّانُ

(من جاد بالمال) من كان منفقا للمال باذلا سخيا كريما، فالناس تميل إليه، وتحبه، وهذا أيضا إشارة إلى شيء من الآثار التي تكون من ثمار الجود والبذل والإحسان، فلما ذم البخر وذكر شيئا من ثمره، مدح البذل والجود والعطاء وذكر أيضا شيئا من أثره

قال (من جاد بالمال مال الناس قاطبة *** إليه والمال للإنسان فتان)

أي المال فتنة كما قال الله سبحانه وتعالى {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن-15]

ثم قال

مَنْ سالَمَ النّاسَ يسلَمْ من غوائِلِهِمْ...... وعاشَ وَهْوَ قَريرُ العَينِ جَذْلانُ

أي من يعامل الناس بالرفق والمسالمة والدفع بالتي هي أحسن، فإنه (يسلم من غوائلهم) غوائلهم أي عدوانهم، وبغيهم وظلمهم وفي الحديث لفظ آخر ولكنه قريب في المعنى (لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه)، (من سالم الناس يسلم من غوائلهم) أي من عدوانهم وظلمهم وبغيهم

(وعاش وهو قرير العين جذلان) أي سيعيش حياة سعيدة، عندما كان بهذه الصفة في التعامل مع الناس بالمسالمة والدفع بالتي هي أحسن، سيعيش قرير العين جذلان أي فرحان، والله سبحانه وتعالى يقول {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت-34]

ثم قال رحمه الله

مَنْ كانَ للعَقلِ سُلطانٌ عَلَيهِ غَدا...... وما على نَفسِهِ للحِرْصِ سُلطانُ

(من كان للعقل سلطان عليه) يعني يتعامل مع الأمور بالعقل، والرزانة والكياسة والفطنة والأناة والنظر في العواقب، من كان بهذه الصفة لا أن يتعامل مع الأمور بالشهوات وتتبع الملذات والاندفاع والعجلة

(من كان للعقل سلطان عليه غدا) أي صار (وما على نفسه للحرص سلطان) أي لن يكون للحرص سلطان على نفسه سيسلم من تسلط الحرص على نفسه، وقد مر معنا ذم الناظم للحريص على المال فقال

(ويا حريصا على الأموال تجمعها)

فلن يكون للحرص سلطان عليه، إذا كان يتعامل ويزن الأمور بالأناة والرفق والحكمة والتدبر في العواقب والنظر في المآلات فإنه بهذه الصفة سيحمد العاقبة، بخلاف من يتعامل مع الأمور بالطيش والتهور والاندفاع، فهذا إنما يجني على

نفسه لتسلط هذه الأشياء عليه

ثم قال

مَنْ مّدَّ طَرْفاً لفَرطِ الجَهلِ نحو هَوى...... أغضى على الحَقّ يَوماً وهْوَ خَزْيانُ

(من مد طرفا لفرط الجهل نحو هوى) أي مد طرفه أي بصره نحو الهوى، أي اشرأبت نفسه للأهواء وتطلعت إليها، ومالت إليها، ماذا سيترتب على ذلك، عندما تكون النفس بهذه الصفة والعياذ بالله، مشرئبة للأهواء ميالة إليها ممتد طرفه إلى نيلها وتحصيلها ماذا سيترتب على ذلك ؟

قال (أغضى على الحق يوما وهو خزيان) أي سيكون في المقامات التي ينتصر فيها للحق، سيتثاقل ويتثبط ولن ينهض وهذا أثر من آثار ركون الإنسان للشهوات، وميل نفسه إلى الشهوات، إذا جاء مقام من مقامات الانتصار للحق سيتثاقل ويغضي الطرف عن ذلك لماذا لأن طرفه أصبح مهتم بالشهوات والملذات وتتبعها والبحث عنها فمن كان بهذه الصفة (سيغضي على الحق يوما وهو خزيان) أي ذليل.

ونكتفي بهذا القدر من هذه الأبيات

ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا أجمعين بما سمعنا وأن يوفقنا لكل خير وأن يهدينا إليه صراطا مستقيما

الطالب: أبو الفتح علي ابن محمد بن الحسين البستي

قال هو من شعراء القرن الرابع بدأ حياته معلما للصبيان في بلدته بست

قال وبست كما ذكرها أبو عبد الله ياقوت الحموي في معجم البلدان مدينة من بلاد كابل

الشيخ: بست البلد الذي ولد فيه هذا الناظم وإليه ينسب، يقال له (البستي) نسبة إلى هذا البلد وهو من بلاد الأفغان

الطالب: قال وقد خرج منها أعيان الفضلاء كالخطابي أحمد ابن محمد البستي، وأبو حاتم محمد ابن حبان إمام الأئمة وأبو الفتح علي ابن محمد البستي

قال عمران ابن موسى ابن محمد الطولقي في أبي الفتح

إذا قيل أي الناس في الأرض زينة *** أجبنا وقلنا أبهج الأرض بستها

فلو أنني أدركت يوما عميدها *** لزنت يد البستي دهرا وبستها

قال: واشتهر البستي بنثر وشعر يغلب عليه التجنيس والبديع ويجري مجرى الأمثال والحكم ومن قصائده القصيدة النونية المشهورة بنونية البستي وعنوان الحكم التي هي من ثلاثة وستين بيتا، وافقت عمر النبي عليه الصلاة والسلام، وهي من أروع وأشهر قصائده بل من أشهر قصائد الحكمة والزهد، وقد انتشرت في الآفاق وتناقلها الحفاظ وحفظها الطلاب وتناولها العلماء بالشروح

قال: من شعره قوله

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم *** بما تحدث من ماض ومن آت

فلا تعيدن حديثا إن طبعهمُ *** موكل بمعادات المعادات

الشيخ: المعادات يعني ما يعاد من الكلام ويكرر

وقال كذلك:

إذا أحسست في فهمي فتورا *** وحفظي والبلاغة والبيان

فلا ترتب بفهمي إن رقصي *** على مقدار إيقاع الزمان

قال: وبالجملة فمحاسنه كثيرة وشعره في غاية اللطافة والرقة ، توفي رحمه الله تعالى سنة 400هـ ببخارى.

هذا ما تيس جمعه وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد واله وصحبه

الشيخ: فيه كلمات له قصيرة فيها حكم وعبر ليست نظما

الطالب: من نثره قوله (من أصلح فاسده أرغم حاسده) و (من أطاع غضبه أضاع أدبه)، وقال كذلك (عادات السادات سادات العادات) وقال أيضا (من سعادة جدك وقوفك عند حدك) وقال كذلك (أجهل الناس من كان للإخوان مذلا وعلى السلطان مدلا) وقال كذلك (الفهم شجاع العقل)

الشيخ: على كل له كلمات جميلة، وأيضا له في غير هذه المنظومة أبيات كانت محل ثناء أهل العلم وتناقلهم وإفادتهم منها

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا أجمعين بالإفادة من هذه الحكم، والانتفاع بما فيها، من عبر وعظات وما فيها من فوائد عظيمة نافعات وأن يوفقنا أجمعين لكل خير إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مَنْ عاشَرَ النّاسَ لاقى مِنهُمُ نَصبَاَ...... لأنَّ سوسَهُمُ بَغْيٌ وعُدْوانُ

ومَنْ يُفَتّشْ عنِ الإخوانِ يقلِهِمُ...... فَجُلُّ إخْوانِ هَذا العَصرِ خَوّانُ

مِنِ استشارَ صُروفَ الدَّهرِ قامَ لهُ...... على حقيقةِ طَبعِ الدهرِ بُرهانُ

مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحصُدْ في عواقبِهِ...... نَدامَةً ولِحَصدِ الزَّرْعِ إبّانُ

مَنِ استَنامَ إلى الأشرارِ نامَ وفي...... قَميصِهِ مِنهُمُ صِلٌّ وثُعْبانُ

كُنْ رَيِّقَ البِشْرِ إنْ الحُرَّ هِمَّتُهُ...... صَحيفَةٌ وعَلَيها البِشْرُ عُنْوانُ

ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمورِ فلَمْ...... يندَمْ رَفيقٌ ولم يذمُمْهُ إنسانُ

ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهُ خرَقٌ...... فالخَرْقُ هَدمٌ ورِفقُ المَرءِ بُنْيانُ

قال رحمه الله :

مَنْ عاشَرَ النّاسَ لاقى مِنهُمُ نَصبَاَ...... لأنَّ سوسَهُمُ بَغْيٌ وعُدْوانُ

في هذا البيت يتحدث ويبين رحمه الله تعالى عن مساوئ وأضرار المعاشرة، معاشرة الناس عموما أي دون مراعاة فيمن يصاحب ومن يخالل، فهذا ولاشك فيه خطورة على المسلم، إذ ليس للمسلم أن يمشي مع من شاء، كما قال ذلك السلف رحمهم الله وفي الحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) فمن عاشر الناس، خالطهم وصاحبهم ورافقهم، (لاقى منهم نصبا) أي سيجد على إثر هذه المخالطة والمصاحبة والمعاشرة سيلقى من الناس نصبا، أي أنهم فيه من سيسيء إليه ومنهم من يظلمه،ومنهم من يحسده، ومنهم من يبغي عليه، ومنهم...الخ، فسيلقى منهم نصبا، ولهذا شرع لنا في السنة كل مرة نخرج فيها من البيت أن نقول (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي) لأن الإنسان إذا خرج من بيته سيلاقي الناس ويختلط بهم وفيهم المحسن والمسيء، وفيهم الظالم والعادل، وفيهم الجاهل والعالم، فهم أخلاط وأجناس وهو عرضة في مخالطته لهم ومعاشرته لهم لأن يلقى النصب، وهو الجهد والعناء والمشقة بسبب مخالطة الناس لماذا؟

قال (لأن سوسهم بغي وعدوان) والسوس في اللغة هو الأصل والطبع، أي أن طبعهم البغي والعدوان، إلا من رحم الله ونجاه ووقاه وسلمه من ذلك وكان الإنسان ظلوما جهولا، إلا من نجاه الله وسلمه ووقاه سبحانه وتعالى من ذلك

ثم قال رحمه الله

ومَنْ يُفَتّشْ عنِ الإخوانِ يقلِهِمُ...... فَجُلُّ إخْوانِ هَذا العَصرِ خَوّانُ

وإن شئت أيضا قل (خُوان) جمع خائن، وكل منهما يستقيم به السياق والمعنى، و(خَوان) مصدر و (خُوان) جمع خائن يقول : (من يفتش عن الإخوان يقلهم)، قلاه يقليه أي أبغضه، أي يبغضهم، من يفتش عن الإخوان يبغضهم، هذه الكلمة تحتمل أحد أمرين يفتش عن الإخوان أي بحثا عنهم، تحريا لمن يصاحب عملا بالحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وقوله (فلينظر) فيه أمر بالتحري، والتنقيب، لا أن يخالط هكذا دون أن يتحرى ودون أن يطمئن لمن يصاحبهم، فإذن قوله، من يفتش أي من يبحث عن إخوان ورفقاء يصاحبهم ويخالطهم (يقلهم) لماذا؟

يقول (جل إخوان هذا العصر خوان)

ويحتمل أن المراد بـ(يفتش عن الإخوان) أي يفتش عن أخلاق و أمور وأعمال من يصاحب، ومن يرافق، وهذا مذموم، فكون الإنسان يعني له إخوة وله رفقاء وله أصحاب ثم، يشتغل بالتفتيش عن معائب وبحث عن أشياء والتنقيب، هذا لا ينبغي، لكن له الظاهر، وما يراه منهم في تعاملاتهم، ومصاحباتهم لا ينقب ولا يفتش

والأقرب أن مراد الناظم، هو الأول، يعني أن من يبحث عن الأصحاب ويفتش عن رفقاء ويصاحبهم في الغالب أن كل من يراهم يبغضهم، بمعنى أنهم قلة، ولهذا قال في الشطر الثاني (جل إخوان هذا العصر خوان) وهذا يقوله في القرن الرابع، فكيف بما بعد هذا القرن الذي يتحدث عنه بعشرة قرون ؟، ولكن الخير باق وقد قال عليه الصلاة والسلام (لا تزال طائفة من أمتي على الحق) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يزال الله يغرس لهذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) و (لا يزال) تفيد الاستمرار، فمثل هذه المعاني لا تقنّط الانسان، ولا تيئسه ولا تدخله في نظرة متشائمة، فإن مثل هذا لا يحمد، بل الخير موجود وأهله لهم وجود ومن بحث عن الإخوان والرفقاء الأخيار وجدهم، ولا ينتظر فيمن يصاحب كمالا، النقص موجود والخطأ موجود والضعف في الإنسان موجود، لكن الأخيار لهم وجود ولهم أعمالهم الخيرة ومآثرهم الحميدة وجهودهم الطيبة.

فالمقصود أن مثل هذا البيت لا يجعل الإنسان ينظر نظرة متشائمة أو نظرة يائس، بل الخير ولله الحمد لا يزال باق ولا يزال الله عز وجل يغرس لهذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته كما جاء في الحديث، عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم قال رحمه الله:

مَنِ استشارَ صُروفَ الدَّهرِ قامَ لهُ...... على حقيقةِ طَبعِ الدهرِ بُرهانُ

مراده بقوله (من استشار صروف الدهر) يعني استكشف من خلال النظر في التاريخ، ومر العصور، وأحوال الأمم، وتقلبات الأيام، (من استشار صروف الدهر) أي نظر نظرة عبر التاريخ، ومسار الأمم وأحوالها والتقلبات التي تحصل، (قام له على حقيقة طبع الدهر برهان)، أي أنه من خلال هذه النظرة سيكتشف وسيقوم له برهان واضح على حقيقة طبع الدهر، ومراده أنه جلاب المعاطب والمهالك والدواهي، هذا المراد بقوله (قام له على حقيقة طبع الدهر برهان)

وهو في هذا جرى مجرى عدد من الشعراء في ذم الدهر، ونسبة المصائب والمحن والفتن والمهالك، والدواهي إليه، على وجه الذم له، والدهر كما يُعلم ولا يخفى لا يملك شيئا، وليس بيده أي شيء من الأمر، فهو مقلَّب يقلبه الله سبحانه وتعالى كيف يشاء ويصرّفه كيف يشاء لا يملك شيئا، ولهذا فإن مثل هذه العبارات، وتأتي كثيرا في الشعر من الألفاظ التي لا ينبغي أن تُقال، وهي تندرج تحت النهي الذي دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار) لأن الدهر مقلّب ولا يملك من أمر التقلب شيء، فالسب له سب لمقلّبه، لأنه مقلب لا يملك شيئا فالسب له سب لمقلبه، ومثل هذا لا يجوز بل يجب أن يجتنب وأن يبتعد عنه، لأنه داخل فيما نهي عنه في هذا الحديث، عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

ثم قال رحمه الله:

مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحصُدْ في عواقبِهِ...... نَدامَةً ولِحَصدِ الزَّرْعِ إبّانُ

(من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة) لأن كل زرع له حصاد، فمن زرع خيرا، حصد يوم الحصاد ثوابه وأجره، ومن زرع شرا، حصد يوم الحصاد عقابه ووزره، وزرع اليوم –كما يقال– حصاد الغد، أي ما يزرعه الإنسان في يومه، يحصده في غده، ومن زرع حصد، حصد أي ما زرعه، إن خيرا حصد خيرا، وإن شرا حصد شرا، كما قال الله تعالى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)} [الزلزلة7-8]

ويوم القيامة يوم الحصاد، أي يحصد فيه الناس ثمار وأثار أعمالهم، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ، عندما قال معاذ للنبي صلى الله عليه وسلم :أوإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، قال(ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم –أو قال على مناخرهم– إلا حصائد ألسنتهم)

فما يقوله الإنسان بلسانه وما يفعله بجوارحه وما يقترفه في هذه الحياة يحصد ثماره وآثاره يوم لقاء الله، إن كان خيرا لقي الثواب والأجر، وإن كان شرا لقي العقاب والوزر، قال الله تعالى {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن-60] وقال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى} [الروم-10] .

هذا معنى قوله(من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة) أي فيما يعقّبه الشر من ثمار وآثار، (ندامة) قال (ولحصد الزرع إبان) أي له وقت، فالحصاد له وقت، الذي يزرع زرعا، ينتظر ثمار زرعه متى؟ إبان الحصاد ووقت الحصاد، فلحصاد الزرع إبان، كأنه ينبه رحمه الله تعالى إلى أن يوم القيامة هو يوم الحصاد ووقت الحصاد، وأن كل إنسان سيلقى في ذلك اليوم ما قدّم في هذه الحياة،{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)} [الزلزلة7-8]

ثم قال رحمه الله

مَنِ استَنامَ إلى الأشرار نامَ وفي...... قَميصِهِ مِنهُمُ صِلٌّ وثُعْبانُ

(من استنام إلى الأشرار) أي ركن إليهم وسكن إليهم وجالسهم واطمأن إلى صحبتهم، وحرص على رفقتهم، سيجني من هذه المجالسة حصادا مرّا وثمارا مؤلمة ونتائج مريرة، (إلى الأشرار) أي من يعرفون بالشر، والخبث والسوء والفساد والانحلال والانحراف

(نام وفي قميصه صل وثعبان) و الصِّل هو الحية القاتلة التي إذا نهشت أحدا قتلته، والثعبان الحية العظيمة، الضخمة، فمعنى ذلك أنه لن يحصّل في سكونه إليهم، ومصاحبته لهم، ومجالسته أياهم، إلا النتيجة المرة، لأنهم سيضعون له السم، فالصل والثعبان ليس فيهما إلا السم المهلك، والأشرار لن يضعوا لمن يصاحبهم إلا سمًّا والمراد بالسم هنا الذي يناله الإنسان بمصاحبة الأشرار، هو ما يفتحونه عليه من أبواب الشر التي فيها عطبه وهلاكه.

وكم من إنسان نشأ في بدء حياته نشأة نظيفة وجميلة ونزيهة، ثم استنام إلى بعض الأشرار ومال إليهم أحب مجالستهم

ومصاحبتهم،وملاعبتهم، والاستمتاع بمرافقتهم ثم دخل في أمور معاطب مهلكة، مثل الدخول –والعياذ بالله– المخدرات والخمور والفواحش والدخول في الجرائم، والبغي والعدوان، يكون في بدأية الأمر نشأ نشأة نظيفة، ثم استنام إلى بعض الأشرار، فتخرج على يديهم مجرما مفسدا، باغيا ظالما معتديا، بسبب مجالسته ومرافقته للأشرار.

وهؤلاء الأشرار الذين يحذر الناظم رحمه الله أشد التحذير من مصاحبتهم ومجالستهم والركون إليهم، قد ظهر في زماننا نوع من الأصحاب والرفقاء الأشرار لم يكن لهم وجود في أي زمان مضى من أزمنة التاريخ، وهم أولائك الذين يصاحبهم كثير من الناس مصاحبة طويلة، من خلال جلوس أمام القنوات الفضائية ومواقع الأنترنت الشبكة العنكبوتية، هذا صاحب من نوع جديد، وكم أهلك هذا الصاحب من صحبه، وجالسه وكم هي الشرور التي زرعت في نفوس كثير ممن نشؤوا على الخير والفضل والأدب بسبب مجالسة هذا النوع من الأصحاب، وأصبح كثير من الناس والشباب ذكورا وإناثا يجلس في غرفة وحده ويغلق الباب ويطمئن أنه لا يراه أحد من الناس، ثم يدخل في متاهات من الأصحاب الأشرار من أرباب الشهوات أو الشبهات، ومع طول هذه المصاحبة وإدمان هذه المجالسة، يفسد قلب هذا الإنسان ويعطب قلبه، وهذا حصل لكثير من الناس، هذه القنوات وتلك المواقع، ينطبق عليها انطباقا تاما قول الناظم
(من استنام إلى الأشرار نام وفي *** قميصه منهمُ صلّ وثعبانُ)

كم والله من السموم بثت في نفوس أناس نشؤوا نشأة خيرة ونشأة طيبة فتحولوا تحولا جذريا إلى أنواع من الشرور والمفاسد بسبب استنامتهم لهؤلاء الأشرار من خلال القنوات الفضائية ومواقع الأنترنت
وفي زمن مضى لم يكن لأعداء الدين طريق للوصول إلى أفكار الشباب والناشئة إلا بصعوبة بالغة، لكن لما وجدت هذه الآلات والوسائل، وسائل الاتصال السريع أصبح هؤلاء الأعداء يدخلون، على العقول والأفكار من خلال هذه الوسائل التي أضرت بكثير من الشباب وقتلت كثيرا من الفضائل وخلخلت كثيرا من العقائد وأثارت الكثير من الشبهات وأججت كثيرا من الشهوات، وأمرضت كثيرا من القلوب وجرت إلى كثير من المصائب، فهذا البيت ينطبق تماما على هذه الآلات، وهي نوع من الأصحاب استجد في زماننا هذا ولم يكن له وجود في زمن سابق
والعاقل ينجو بنفسه ويربأ بها أن تهلك مع الهالكين وقد قيل:
قد هيئوك لأمر لو فطنت له *** فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ثم قال رحمه الله تعالى
كُنْ رَيِّقَ البِشْرِ إنْ الحُرَّ هِمَّتُهُ...... صَحيفَةٌ وعَلَيها البِشْرُ عُنْوانُ
من كان من خيار الناس همته في ملاقاة الناس وجهه مثل الصحيفة البيضاء التي عنوانها، البشر، بحيث أنه دائما يحرص في كل وقت وكل حين أن يلقى الناس بالبشر، وطلاقة الوجه.

ثم قال رحمه الله تعالى
ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمور فلَمْ...... يندّمْ رَفيقٌ ولم يذمُمْهُ إنسان

ورافق الرفق أي صاحبه ولازمه، وكن من أهله، (في كل الأمور) أي في جميع أمورك تعامل بالرفق ابتعد عن الاندفاع، الرعونة، التهور الطيش العجلة، العنف.. ابتعد عنها، ولازم الرفق في كل الأمور(فلم يندم رفيق)، يعني من يتعامل مع الناس برفق لم يندم يوما من الأيام، لكونه يتعامل بالرفق، لأن الرفق كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام (خير كله) ولا يأتي إلا بخير فإذن من يتعامل مع الناس برفق، لا يندم، لكن من يتعامل مع الناس بضد الرفق، كثيرا ما يندم، ليتني وليتني

(فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان) يعني لم يذمه أحد لرفقه وهدوئه ورزانته وتؤدته، ولكن الناس دائما يذمون العجل الطائش المتهور المندفع هذا دائما يذمونه الناس فهو يندم من جهة والناس يذمونه من جهة أخرى، بينما الرفيق سلم من هذين الأمرين، لا يندم على قراراته، والإجراءات التي اتخذها، وأيضا في الوقت نفسه لا أحد يذمه

ثم قال

ولا يَغُرَّنْكَ حَظٌّ جَرَّهُ خرَقٌ...... فالخَرْقُ هَدمٌ ورِفقُ المرءِ بُنْيانُ

(ولا يغرنك حظ جره خرق) أي أياك أن تغتر، لحظ أي نصيب حصل لبعض الناس بسبب نوع من الخرق،يعني تعامل معاملة فيها شيء من الخرق، وحصل نتيجة مصلا جيدة، فلا تغتر بذلك، لأن بعض الناس قد يرى شخصا من الأشخاص مثلا اندفع في أمر ما وحصل ربحا مثلا، أو غنيمة، فيغتر فيسلك مسلكه، ثم يقع في الهلاك فيقول لا تغتر بحظ جره خرق

(فالخرق هدم) والخرَق والخرْق بمعنى واحد وهو الحماقة والتهور والاندفاع، (فالخرق هدم) أي دائما التعامل بالخرق والتهور والاندفاع، والطيش هدم أي النتائج التي تترتب على التعامل مع الأمور بالخرق هي في الحقيقة هدم لا بناء

(ورفق المرء بنيان) إذن هذا معنى جميل جدا الرفق يبني والخرق يهدم، لا يحصل صاحبه من ورائه ثمارا جميلة وآثارا حميدة فهذا كله تأكيد من الناظم رحمه الله على العنأية بالرفق، والحذر من الخرق، والخرق، وقد جاء في الحديث في مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من يُحرم الرفق يحرم الخير) أي من يتعامل في الأمور بالتهور والاندفاع، يحرم الخير، لا يحصل نتائج خيرة وثمار جميلة، وطيبة

أحسِنْ إذا كانَ إمكانٌ ومَقدِرةٌ ......فلن يَدومَ على الإحسانِ إمكانُ

فالرَّوضُ يَزدانُ بالأنْوَارِ فاغِمةً...... والحُرُّ بالعدلْ والإحسانِ يَزْدانُ

صُنْ حُرَّ وَجهِكَ لا تَهتِكْ غِلامتهُ...... فكُل حُرٍّ لِحُرِّ الوَجهِ صَوّانُ

فإنْ لَقِيتَ عدُوّاً فَالْقَهُ أبَداً...... والوَجهُ بالبِشْرِ والإشراقِ غَضّانُ

دَعِ التكاسُلَ في الخَيراتِ تطلُبُها...... فليسَ يسعَدُ بالخَيراتِ كَسْلانُ

لا ظِلَّ للمَرءِ يعرى من تُقىً ونُهىً...... وإن أظَلَّتْهُ أوراقٌ وأغصانُ

والنّاسُ أعوانُ مَنْ وَالتْهُ دولَتُهُ...... وهُمْ علَيهِ إذا عادَتْهُ أعوانُ

سَحْبانُ من غَيرِ مالٍ باقِلٌ حَصِرٌ...... وباقِلٌ في ثَراءِ المالِ سَحْبانُ

لا تُودِعِ السِرَّ وَشّاءً يبوحُ بِهِ...... فما رعى غَنَماً في البَدَّوِ سِرْحانُ

لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعاً واحِداً فَلَهُمْ...... غرائزٌ لسْتَ تُحصِيهن ألوانُ

ما كُلُّ ماءٍ كصَدّاءٍ لوارِدِه...... نَعَمْ ولا كُلُّ نَبْتٍ فهو سَعْدانُ

لا تَخدِشَنَّ بِمَطْلٍ وَجْهَ عارِفَةٍ...... فالبِرُّ يَخدِشُهُ مَطْلٌ وليّانُ

لا تَستشِرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَقِظٍ...... قدِ اسْتَوى فيه إسْرارٌ وإعْلانُ

فلِلتدابيرِ فُرْسانٌ إذا رَكِبُوا...... فيها أبَرُّوا كما لِلحَربِ فُرْسانُ

قال رحمه الله تعالى:

أحسِنْ إذا كانَ إمكانٌ ومَقدِرةٌ فلن...... يَدومَ على الإحسانِ إمكانُ

(أحسن) أي في المجال الذي فتح لك باب الإحسان فيه، وهذا لا يختص بأمر معين وإنما يتناول كل أبواب الإحسان، إن فتح لك باب في التعلم والعلم والتحصيل أحسن في ذلك، إن فتح لك باب في العبادة والنوافل أحسن في ذلك، في البر والصلة أحسن في ذلك، في النفقة والبذل...

يقول (أحسن إذا كان إمكان ومقدرة) كلما وجدت إمكان ومقدرة على الإحسان فأحسن، لا تؤجل، ولا تؤخر، قد يفتح لك باب إحسان اليوم وتؤجله إلى الغد، فلا ينفتح لك في الغد، بل ربما لا ينفتح لك إلى أن تموت، فهذا تنبيه من الناظم أن العاقل يغنم، مباشرة إذا حصّل بابا من أبواب الخير ومجالا من مجالاته، يغنم ذلك والله تعالى يقول {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}[الأنفال-24]، يعني أخذ من ذلك أهل العلم أن من لا يستجيب ولا يبادر ولا يسارع للخير قد يحال بينه وبين ذلك، ويعاقب بالحرمان منه ولهذا ينبغي على الإنسان إذا انفتح له باب من أبواب الخير أن يحرص على اغتنامه، وتحصيله قبل أن يحال بينه وبينه

ما كل وقت ينشرح صدرك لطلب العلم مثلا، ولا كل وقت ينشرح صدرك للنوافل، فإذا حصل من النفس إقبال وإمكان، وقدرة اغتنم ذلك، لعل ذلك يكون هو البوابة والمدخل للمضي في هذا الطريق المبارك، بخلاف من يؤجل، قد يكون هو التأجيل هو التأجيل الذي لا عودة بعده، إلى أن يموت الإنسان، أحسن إذا كان إمكان ومقدرة لماذا؟

يأتيك الجواب والتعليل في الشطر الثاني

قال (فلن يدون على الإحسان إمكان) يعني هذا الإمكان الذي حصل لك في وقت ما، لن يدوم لك، ولن يستمر، إما بضعفك، أو ضعف همتك، أو كثرة المثبطات من حولك، أو كثرة الشواغل، أو عدم وجود المعين، أو غير ذلك، يعني مثلا قد يتهيأ لك حلقة علم على عالم فاضل، تتعلم على يديه، ثم تؤجل، ذلك سنة سنتين ثلاث ثم يموت ذلك العالم، فلا يكون عندك إمكان، قد فوت على نفسك الخير وقت الإمكان فهذا معنى قوله

(أحسن إذا كان إمكان ومقدرة *** فلن يدوم على الإحسان إمكان)

أي هذا الإمكان لا يدوم لك، لأن الأمور والأيام تتغير، فما كان ممكنا اليوم، قد لا يكون ممكنا الغد

يعني أعطيك مثالا حضرني الآن، أنت في فترة من فترات حياتك، عندك إمكان أن تقرأ الكتب من دون زجاجة، تعينك على القراءة، ربما تأتي عليك مرحلة، لا تتمكن من قراءة الكتب إلا بالزجاجة، وإذا لم تكن معك لم تستطع أن تقرأ، وربما تأتي على الإنسان فترة، لا يستطيع أن يقرأ لا بالزجاجة ولا بغيرها، لأن الإمكان الذي هو البصر قد يكون ضعف، فلا يتمكن إلا بزجاجة وقد يذهب البصر، فلا تنفع لا زجاجة ولا غيرها

فإذن وقت الإمكان يغتنمه الإنسان ويحرص عليه

وسبحان الله من فضل الله سبحانه وتعالى أن العمل الصالح، إذا حال بين الإنسان وبينه مرض صحي كتب له ما كان يعمل، مثل قراءة الإنسان ببصره الكتب والعنأية بحفظ بصره، ثم فقد بصره، يكتب له وفضل الله سبحانه وتعالى واسع

إذن قوله

(أحسن إذا كان إمكان ومقدرة *** فلن يدوم على الإحسان إمكان)

فهذا يدخل تحته معاني كثيرة جدا، أيضا مثال آخر حضر في ذهني، وجود الأبوين عند الإنسان، هذا إمكان عظيم جدا مهيأ للبر، بر الوالدين من أجل الأعمال وأعظمها، وقرن في حق الله في أيات كثيرة جدا،{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ }[لقمان-14]، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }[النساء-36]، قد يكون عندك فرصة عظيمة للبر، ثم يأتي عليك زمان ربما تفقد الوالدين أو تفقد أحدهما، ويندم المفرط، لضياع الإمكان، كان عنده الإمكان فضيع ثم فقد والديه، ثم لم يعد عنده إمكان لذلك، إذن مادام الإمكان موجود اغتنم ذلك، ولا تضيع على نفسك الفرصة

وهذا البيت تحته معاني كثيرة جدا، قد يأتي إنسان إلى بلد، ويكون في مجالس علم حافلة بالعلم، وتكون مدته مثلا في هذا البلد ثلاث سنوات وأربع سنوات، فكان عنده إمكان في تلك المدة أن يحصل على الأكابر من أهل العلم، ثم تنتهي الثلاث سنوات ويرجع إلى بلده، فينتهي ذلك الإمكان، ويندم، فكما قال (فلن يدوم على الإحسان إمكان) إذن مادامت الفرصة مواتية والإمكان متيسر ومتهيئ، ينبغي على الإنسان أن يقدم على ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن)

ثم قال رحمه الله

فالرَّوضُ يَزدانُ بالأنْوَارِ فاغِمةً...... والحُرُّ بالعدلْ والإحسانِ يَزْدانُ

(فالروض) الأرض المربعة المعشبة كثيرة النبات والزهر، والشجر، لا تمل من النظر إليها، والجلوس فيها، (فالروض يزدان بالأنوار) إذا جئت إلى روض أرض روضة فيها العشب والنبات الكثير، إذا رأيت في هذا النبات النور وهو الأزهار، إذا رأيت الأنوار يعني جمع نور وهو الزهر، فإذا رأيت الأزهار ذات الرائحة الجميلة، ماذا يحصل له بوجود هذه الأزهار في

الروض، يزدان الروض بالأزهار (فاغمة)، إذا جئت إلى الروض وفيه الأزهار المتفتحة وتنبعث منها تلك الرائحة الجميلة، فهذا أمر يزدان به الروض ويجمل ويطيب

(والحر بالعدل والإحسان يزدان) يعني مثل ما أن الروض يزدان بالأزهار، فالحر، الخير من الناس والفاضل منهم يزدان أيضا بالعدل والإحسان، كلما كان متحليا بالعدل والإحسان متصفا بهما، كان ذلك زينة وجمالا له، مثلما أن الأرض تجمل وتزين، بالأزهار المتفتحة ذوات الروائح الجميلة الطيبة فكذلك الإنسان الفاضل الخير، يزينه ويجمله عدله وإحسانه

صُنْ حُرَّ وَجهِكَ لا تَهتِكْ غِلامتهُ...... فكُل حُرٍّ لِحُرِّ الوَجهِ صَوّانُ

(حر وجهك) أي حسنه وطيبه، وضياؤه وجماله، صنه أي جنبه، وأبعده عن كل أمر يبعد عنه هذه النضارة وهذا الحسن وهذا الجمال (صن حر وجهك لا تهتك غلالته) قالوا: الغلالة الثوب الرقيق، فكأن الثوب الطيب الحسن البهي كأن عليه غطاء رقيق جميل يزدان به الوجه، ويجمل، فإذا دنّسه صاحبه بما لا يجمل ومالا يطيب، هتك تلك الغلالة، وأزال ذلك الستر عن وجهه، فذهبت عن وجهه نضارته وحسنه وجماله

(فكل حر لحر الوجه صوان) كل حر من الرجال، أي صاحب المآثر والأخلاق، والصفات الحميدة، (لحر وجهه صوان)، أي يصون حر وجهه عن كل ما يشينه ويقبحه ويريق دم وجهه وبهاء وجهه لتوافه الأمور، الدنيوية، بعض الناس لا يبالي بذلك، يعني لا يبالي بأن يريق دم وجهه بحيل، بكذب، بافتراء إلى غير ذلك ما يبالي بهذا، لا يبالي إذا لقاه الناس يرون –مثلا– في وجهه الكذب، والشر والأذى، والفجور لا يبالي بهذه المعاني، لأنه هتك غلالة وجهه ولم يصنه، وأراق دم وجهه، فإذن الحر يصون حر الوجه، أي جمال الوجه وحسنه وبهاءه عن كل أمر يشينه

وإذا كان الحديث حديث عن حر الوجه الذي هو جمال الوجه وزينة الوجه، فإمام هذا الأمر قول النبي صلى الله عليه وسلم (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فحفظها فأداها كما سمعها) هذا إمام هذا الأمر وجماعه، نضارة الوجه وزينته وحسنه وجماله، وبهاؤه، إنما يكون بالعنأية بالسنة، علما وعملا، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لمن كانوا كذلك بهذه الدعوة الميمونة المباركة، (نضر الله امرأ) ومعنى نضره أي كسا وجهه جمالا وحسنا وبهاء

ثم قال رحمه الله تعالى

فإنْ لَقِيتَ عدُوّاً فَالْقَهُ أبَداً...... والوَجهُ بالبِشْرِ والإشراقِ غَضّانُ

ومعنى (غضان) يعني مشرق، وطلق، في هذا البيت يوضح كيف يتعامل الإنسان، مع الأعداء، وأهل الشر إذا لقيهم وابتلي بهم، فيقول عليك أن تلقاهم أبدا يعني دائما وباستمرار بالوجه والبشر، (والوجه بالبشر والإشراق) تلقاهم بالبشر والإشراق، لتدفع بذلك شرهم وعدوانهم، عملا بقوله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت–34] فإذا كان الذي بينك وبينه عداوة أو من كان صاحب عدوان، فاحرص على أن تلقاه بالبشر،

وإشراقة الوجه، وطلاقة الوجه، وقد جاء في الصحيح حديث أم المؤمنين عائشة أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال (بئس أخو العشيرة) ثم لما دخل الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه وكان قبل قليل قد قال (بئس أبو العشيرة) ولما دخل الرجل تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، ثم لما خرج سألته عائشة في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام (إن شرار الناس من اتقاه الناس خشية شره) أو كما قال عليه الصلاة والسلام

فإذن هذه الوصية التي ذكرها الناظم مستمدة من هذا الحديث، وأن الإنسان ينبغي أن يلقى عدوه أبدا وباستمرار، بالبشر والإشراق، وطلاقة الوجه، لماذا؟

أولا أنت بمثل هذا الأسلوب تكف شره عنك، وهذا يسمى دفع بالتي هي أحسن، فأنت تكف شره عنك

والناحية الثانية قد تفيده هو، بأن يتأثر بتعاملك وأخلاقك، وكم من الناس الذين عرفوا بالعدوان تحولوا إلى أفاضل أخيار لمعاملة عوملوا بها، فأثرت فيهم، وانظر شواهد ذلك الكثيرة في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، كيف كان يلاقي خصومه وأعداءه، وكيف تلك الملاقاة تحولوا بسببها إلى حال هي أحسن حال

ثم قال رحمه الله

دَعِ التكاسُلَ في الخَيراتِ تطلُبُها...... فليسَ يسعَدُ بالخَيراتِ كَسْلانُ

هذا بيت فيه التحذير من الكسل، وكثيرا ما جاء التعوذ من الكسل، في الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، (اللهم إني أعوذ بك من العجز ومن الكسل) والعجز يختلف عن الكسل، من جهة عدم القيام بالشيء لعدم القدرة عليه، أما الكسل فهو عدم القيام بالشيء مع القدرة عليه، يعني قادر بدنيا وجسديا وصحيا على أن يقوم بشيء فلا يقوم به بسبب الكسل، فيقول دع التكاسل، إذا عنّت لك أبواب من أبواب الخير، لا تقابلها بالتكاسل، (دع التكاسل في الخيرات) يعني إذا انفتحت لك أبواب الخيرات لا تتكاسل، ولا تقابلها بالكسل

(تطلبها) معنى تطلبها أي تحب أن تحصلها وأن تكون من أهلها لكن لا تفعلها كسلا، وتترك فعلها بسبب الكسل، وأنت تطلبها، تحبها وتحب أن تكون من أهلها، ولكنك لا تفعلها بسبب الكسل، والوقوع في التكاسل

(فليس يسعد بالخيرات كسلان) الخيرات لا يسعد بها وبأن يكون من أهلها والقائمين بها من كان من أهل الكسل

قال

لا ظِلَّ للمَرءِ يعرى من تُقىً ونُهىً...... وإن أظلَّتْهُ أوراقٌ وأغصانُ

(لا ظل للمرء يعرى من تقى ونهى) أي أن الإنسان إذا كان ليس فيه تقوى، وليس فيه نهى، والنهى العقل، يعني ليس عنده تقوى وليس عنده عقل، إذا كان عاريا من التقوى ومن العقل، لا ظل له بمعنى لا عز له، ولا مَنَعَة حتى (وإن

أظلته أوراق وأفنان) يعني حتى لو كان في ظل الأوراق أوراق الأشجار، والأفنان التي هي الغصون، غصون الأشجار، لو كان في ظل جميل للشجر هو في الحقيقة لا ظل له، لأن ظل المرء الحقيقي تقاه ونهاه أي عقله، التقى والنهى، والنهى هو العقل، و {لِأُولِي النُّهَى} [طه-45] أي أولي العقول.

(لا ظل للمرء يعرى من تقى ونهى) أي من عري من التقى والنهى أي لم يكن متحليا بهما متصفا بهما، لا ظل له أي لا عز له ولا منعة، حتى ولو كان في ظلال الأشجار ذات الغصون الجميلة

والنّاسُ أعوانُ مَنْ وَالتْهُ دولَتُهُ...... وهُمْ علَيهِ إذا عادَتْهُ أعوانُ

(والناس أعوان من والته دولته) معنى (والته دولته) أي أقبلت عليه دنياه وانفتحت عليه الدنيا، ومن كانت هذه صفته وأصبح بيده دنيا ومال إلى آخره، أعوان له، كلٌّ يعرض نفسه لخدمته، وكل يقول له أي خدمة في أي لحظة، ولا تتردد في أي ساعة من ليل أو نهار أنا جاهز

(وهم عليه إذا عادته أعوان) أعوان عليه يعني ضده، يعني إذا كان صاحب مال وثراء وكذا، كل يبدي له استعدادا تاما لخدمته، ومعاونته، وإذا تغير الأمر إذا عادته يعني أصبح ما عنده شيء من ذلك المال، والثراء، فإنهم أعداء له قل مثل ذلك تماما في من كان يوما ما عنده رئاسة، جميع من تحته ومنسوبيه، كل واحد منهم تحت الخدمة وأعوان له، وإذا انتهت تلك الرئاسة وتلك الزعامة لم يبق منها شيء، لا يبقى شيء من ذلك بل ربما يتحول عدد منهم إلى أعداء له، فالأمر كما قال

(والناس أعوان من والته دولته *** وهم عليه إذا عادته أعوان) أي يتكالبون عليه، عدوانا وأذى

سَحْبانُ من غَيرِ مالٍ باقِلٌ حَصِرٌ...... وباقِلٌ في ثَراءِ المالِ سَحْبانُ

(سحبان) هذا من وائل كان يضرب به المثل في الفصاحة، والبلاغة والبيان، رجل فصيح جدا يضرب به المثل، فإذا أريد مدح شخص لفصاحته وبيانه قالوا :سحبان وائل، فصاحة كفصاحة سحبان، يضرب به المثل في الفصاحة، يقول (سحبان) أي هذا الفصيح البليغ (من غير مال) إذا ما كان عنده مال (باقل حصر) باقل رجل آخر من بني أياد،يضرب به المثل في العيّ، يعني ما يستطيع أن يفصح عن شيء يريد أن يقوله، الكلام عنده عسر جدا، حتى مما ذكر من عيّه أنه اشترى ضبيا، بأحد عشر درهما، فلقيه قوم، فقالوا له يا باقل بكم اشتريته؟ فترك الضبي وأشار لهم بيديه إلى اثنتي عشر وأخرج لسانه ليبين لهم أنه اشتراه بإحدى عشر فانطلق الضبي وهرب، قالوا بكم؟ فما أحسن أن يقول أحد عشر درهما عنده عي في الكلام، والإفصاح عما يريد، فكان يضرب به المثل في العيّ، يعني عدم القدرة على الإفصاح والبيان.

فيقول الناظم (سحبان) هذا الفصيح البليغ، من غير مال باقل حصر، يعني عند الناس، إذا كان الشخص فصيحا وبليغا وليس عنده مال يعتبرونه باقل حصر، ولا يعتبرون كلامه.

(وباقل في ثراء المال سحبان) باقل يعني الرجل العيي الذي لا يحسن أن يفصح، ولا يحسن أن يتكلم إذا كان صاحب مال، وأخذ يتكلم، ما الذي يحدث؟ صاحب المال والثراء الذي هو في الحقيقة عنده عي في البيان ولا يحسن أن يتكلم،

إذا أخذ يتكلم، فالذين حوله، كيف يكون استماعهم له؟ كلهم ينصتون، وإذا تكلم كل واحد يقول له : ما أحسن بيانك، وما أجمل كلامك، وما أروع فصاحتك، وكلامك هذا كله ذهب، وكله درر، وما رأيت مثلك في البيان، أيش الجمال هذا، وأيش العبارات الحلوة.. وهو لا يعتبر أصلا الكلام والفصاحة لا ينظر إليها وإنما من أجل ما عنده من المال، فيمدحه حتى يقرب منه، وحتى يحصل منه شيئا، هذا غالب في نظرة كثير من الناس

(سحبان من غير مال باقل حصر *** وباقل في ثراء المال سحبان)

ثم قال:

لا تُودِعِ السِرَّ وَشَّاءً يبوحُ بِهِ...... فما رعى غَنَماً في البدَّوِّ سِرْحانُ

سرك لا تودعه شخصا وشاء، والوشاء هو المذياع الذي لا يحفظ السر، ولا يحسن كتمه، ويقولون : إن السر إذا جاوز الاثنين شاع، ما المراد بمجاوزته الاثنين؟ قيل المراد بمجاوزته الاثنين أي الشفتين، إذا أخرجته أنت يا صاحبه من شفتيك لم تحفظه، ولن تتمكن من حفظه، ومن أودعته عنده لن يتمكن إلا من رحم الله

وكتمان السر أمر عزيز جدا، ولن يُوفق لذلك إلا من وفقه الله سبحانه وتعالى، وبعض الناس أيضا معروف بإفشاء السر وعدم كتمانه، فيُحذِّر من إفشاء السر لمن يبوح به، وأن الإنسان ينبغي أن يحفظ سره.

يقول (لا تودع السر وشاء يبوح به) يبوح به أي يعلنه ويظهره، وهذا تحذير من ائتمان من لا يؤتمن.

(فما رعى غنما في الدّوّ سرحان) سرحان هذا اسم للذئب، من أسمائه سرحان بكسر السين، و (الدو) الصحراء والمفازة، فهل يتصور أن الذئب يرعى الأغنام في الصحراء ؟ الجواب لا،لا يرعاها، يعني هذا مثل ذكره للوشاء إذا أودع السر لا يحفظ السر، وهو مثل الذئب لو أودع الغنم، لا يحفظها بل يبطش بها ويجعلها ما بين قتيل وجريح.

ثم قال:

لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعاً واحِداً فَلَهُمْ...... غرائزٌ لسْتَ تُحصِيهن ألوانُ

يعني لا تظن أن الناس على معدن واحد، وعلى مستوى واحد في الأخلاق، لا تظن في الناس أنهم بهذه الصفة، بل الناس معادن، وفي الحديث (الناس معادن) وهو في الصحيحين فالناس ليسوا على طبع واحد ولا على معدن واحد ولا على خلق واحد، فلا (تحسب الناس طبعا واحدا) لو أنك ظننت أن الناس طبعا واحدا، تتعب، إذ أنك تفاجأ في مخالطتك للناس بطباع مختلفة، يعني شخص تعامله معاملة جيدة ما ينساها لك أبدا، ثم آخر تعامله بنفس تلك المعاملة الجيدة، فتجده يحفر لك بالخفاء، وأنت قد أحسنت إليه، فأناس لا ينسون الجميل، وأناس لا ينفع فيهم الجميل، بل يعني هم طبعوا على اللؤم، وسوء الطبع، لكن يد المعروف والإحسان لا تضيع، أينما وضعت، وما ضاع في الدنيا لا يضيع عند الله سبحانه وتعالى

ولهذا ينبغي على المسلم أنه عندما يقدم صنائع المعروف، يقدمها رجاء ما عند الله، أما إذا قدم صنائع المعروف يرجو بها ممن أحسن أليهم شيئا، فهذا يتعب جدا، فالأصل في صنائع المعروف أن تقدم قربة،يتقرب بها المسلم إلى ربه سبحانه

وتعالى، (ويد المعروف غنم حيث كانت)، كما قال ذلك عبد الله ابن المبارك، يعني سواء كانت في شَكور أو كَفور هي غنم،لكن متى تكون غنما لك؟ إن صنعتها تقربا لله، وطلبا لثوابه سبحانه وتعالى، ورضاه، ولهذا قال الله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}[الأعراف-199] قيل في معنى خذ العفو، أي من الناس ما سمحت به طباعهم، ولا تنتظر منهم جميعا أن يعاملوك بالعمالة الكريمة التي ترى أنت أنك تستحقها، وتستحق أن تعامل بها، لا تنتظر ذلك، حتى من أولادك وأقرب الناس إليك، واقرأ كلاما عظيما جميلا جدا في معنى هذه الآية في تفسير الإمام السعدي رحمه الله تعالى، وكذلك اقرأ له كلاما جميلا حول معنى هذه الآية في كتابه الرياض الناضرة

قال (فلهم غرائز لست تحصيهن ألوان) أي طباع الناس وغرائزهم ومعادنهم، وأصناف أخلاقهم، هذه لا تحصى، والناس في هذا الباب متفاوتون تفاوتا كبيرا

هدانا الله أجمعين لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو وصرف عنا أجمعين سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا هو.

ثم قال لتقرير ما سبق وتوضيحه بالمثال

ما كُلُّ ماءٍ كصَدّاءٍ لوارِدِه...... نَعَمْ ولا كُلُّ نَبْتٍ فهو سَعْدانُ

(ما كل ماء كصداء لوارده) وصداء هي عين عذبة مشهورة بعذوبتها وحسن مائها وطيبه، فيقول (ما كل ماء كصداء) يعني ما كل عين تكون في العذوبة كصداء، أي مثل تلك العين المعروفة بهذا الاسم، هذا جاء به شاهدا لتفاوت الناس في طبائعهم، كما أنه ما كل ماء كصداء، فأيضا ما كل الأخلاق خلقا واحدا، ولا كل الطباع طبعا واحدا

(نعم ولا كل نبت فهو سعدان) والسعدان نبت جيد نافع جدا للإبل، وهو مرعى للإبر نافع لها، ويدرّ لبنها، ويفيدها فائدة عظيمة جدا، (ولا كل نبت فهو سعدان) يعني ليس كل النباتات بمستوى هذا النبت المعروف بسعدان بفائدته وجودته وحسنه، نفعه للإبل التي ترعاه، هذان مثالان جاء بهما رحمه الله توضيحا لما سبق

ثم قال:

لا تَخدِشَنَّ بِمَطْلٍ وَجْهَ عارِفَةٍ...... فالبِرُّ يَخدِشُهُ مَطْلٌ ولَيّانُ

(لا تخدشن بمطل وجه عارفة) مراده بقوله (عارفة) أي معروف، عندما تقدم معروفا لإنسان أو تهمّ بتقديم معروف لإنسان أو تعد أحدا بمعروف، فإياك أن تخدش وجه معروفك له، بمطل، يعني مثلا شخص وعدته بشيء، وقلت: حاجتك الفلانية عندي، واعتبرها منتهى على يدي، وأنا سأتولاها، ثم جاءك اليوم وقلت له: مرني بعد أسبوع، وبعد أسبوع قلت له: تعال بعد الأسبوع القادم، ثم بعد أسبوعين وثلاثة وترديد...الخ قمت بالمعروف الذي وعدته به، تكون بذلك خدشت وجه المعروف، يعني جماله وحسنه خدشته بالمطل والتأخير والتأجيل، وعدم سرعة الوفاء لما وعدته به

(فالبر يخدشه مطل وليان) البر الذي هو المعروف والإحسان يخدشه، أي يجرحه، الخدش الجرح، (يخدشه مطل وليان) واللي هو المطل، ومنه الحديث وهو حديث حسن في المسند وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لي الواجد يحل عرضه وعقوبته)

ثم قال رحمه الله:

لا تَستشِرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَقِظٍ...... قدِ اسْتَوى فيه إسْرارٌ وإعْلانُ

(لا تستشر غير ندب حازم يقظ) هذه ثلاث صفات نبه عليها الناظم، رحمه الله تراعى في الشخص الذي يستشار، وأنت تعرف أن الشريعة حثت على الاستشارة، ورغبت فيها وقال الله عز وجل {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران-159] وفي المأثور عن أهل العلم (ما خاب من استشار) فالاستشارة هي زيادة في العقل، لأنك ضممت إلى عقلك عقل غيرك، ممن عنده بصيرة ورأي، لكن ليس كل أحد يصح لأن يستشار، والاستشارة هذه أمر خطير جدا، وأحيانا يدخل الإنسان بسبب الاستشارة في منعطف خطير في حياته ربما يبقى عليه إلى أن يموت، وربما أيضا بالاستشارة يدخل مسلكا جميلا حميدا، يحمد سيره عليه إلى أن يموت، فالاستشارة أمرها مهم جدا، وليس كل أحد يصلح أن يستشار

إذن من الذي يصلح لأن يستشار؟ يأتيك الجواب في هذا البيت حيث يقول (لا تستشر غير ندب حازم يقظ) يعني احصر استشارتك في من هذه صفاتهم، الندب قالوا في اللغة: رجل ندب أي خفيف في الحاجة، يعني معروف بسرعته في خدمة الناس وأمور البر والعمل في أبواب الإحسان، يعني رجل مبادر ومسارع للخيرات، والندب الذي هو صاحب همة عالية وجد ونشاط في العمل الخيري، تستفيد من هذه الصفة التي فيه، لأنك إن استشرت كسولا، يقول لك: لا تستعجل الآن، ارتاح لك شهر شهرين ثلاثة والدنيا إن شاء الله فيها خير والذي ما تحصله اليوم تحصله الشهر القادم، وتحصله السنة القادمة واترك الآن العمل، اجلس جسمك يرتاح... الخ من هذه المعاني. فالكسول من طبيعة كسله يعطي مشورته، والندب الشخص النشيط بنشاطه وهمته وعزيمته أيضا يعطي من يستشيره دفعة مفيدة جدا استفدت منه في هذا الجانب.

والحازم الضابط، يعني ضابط للأمور، وعنده تمييز لها بين الحسن والسيئ والطيب والرديء، معروف بضبطه وإتقانه للأمور.

والصفة الثالثة (يقظ) أي نبيه فيه نباهة ويعرف كيف يبدي الرأي المناسب في الوقت المناسب في المجال المناسب

فهذه ثلاث صفات ذكرها رحمه الله جميلة جدا، فيمن يصلح فعلا أن يستشار.

ثم أضاف لها في الشطر الآخر صفة رابعة وهي قوله (قد استوى فيه إسرار وإعلان) والإسرار بين الإنسان وبين الله لكن لا يعرف عنه خلال ظاهره خبث وشر وبطانة شر وكيد، لأن مثل هذه المعاني قد تنكشف بفلتات اللسان {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } [محمد-30] (قد استوى فيه إسرار وإعلان)

ثم قال رحمه الله:

فلِلتدابيرِ فُرْسانٌ إذا رَكِبُوا...... فيها أَبَرُّوا كما لِلحَربِ فُرْسان

(فللتدابير فرسان إذا ركبوا فيها أبروا) التدابير تدابير الأمور، ما كل أحد يصلح، وفي الحديث (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) واقرأ شرحا جميلا جدا لهذا الحديث في جزء مفرد لابن رجب رحمه الله تعالى وهو مطبوع (فللتدابير فرسان) فللأمور والأعمال والمصالح، ولاسيما المصالح مصالح الأمة العامة ومنافع الناس لها فرسان إذا ركبوا فيها أبروا، إذا

استلموها وكانت بين أيديهم أبروا أي فازوا وظفروا وحمدوا وحمد غيرهم العاقبة.

(فللتدابير فرسان إذا ركبوا ***فيها أبروا كما للحرب فرسان)

مثل ما أن الحرب لها فرسان، أيضا تدابير الأمور لها فرسان إذا كانت بأيديهم حصّلوا وحصّل الناس معهم النتائج الحميدة الطيبة.

ولِلأمور مَواقيتٌ مُقَدَّرَةٌ...... وكُلُّ أمرٍ لهُ حَدٌّ ومِيزانُ

فلا تكُنْ عَجِلاً بالأمرِ تطلُبُهُ...... فليسَ يُحمَدُ قبل النُّضْجِ بُحْرانُ

كفى مِنَ العيشِ ما قدْ سَدَّ من عَوَزٍ...... ففيهِ للحُرِّ إن حققت غُنيانُ

وذو القَناعَةِ راضٍ من مَعيشَتِهِ...... وصاحبُ الحِرْصِ إن أثرى فَغَضبْانُ

حَسْبُ الفتى عقلُهُ خِلاً يُعاشِرُهُ...... إذا تحاماهُ إخوانٌ وخُلاّنُ

هُما رضيعا لِبانٍ حِكمَةٌ وتُقىً...... وساكِنا وَطَنٍ مالٌ وطُغْيانُ

إذا نَبا بكريمٍ موطِنٌ فلَهُ...... وراءهُ في بسيط الأرض أوطانُ

قال رحمه الله :

ولِلأمور مَواقيتٌ مُقَدَّرَةٌ...... وكُلُّ أمرٍ لهُ حَدٌّ ومِيزانُ

ينبه الناظم، رحمه الله تعالى إلى مراعاة مواقيت الأشياء وأيضا حدودها، وموازينها، بحيث يزن المرء كل أمر، بميزانه المناسب، وقته وحدّه وميزانه، يراعي ذلك، لأن الأمور إن لم توزن بموازينها، ولم تعتبر فيها موازينها وقع الخلل، فمثلا من حيث الوقت، يقول (ولِلأمور مواقيت مقدّرة) إن لم تراع في الأمور مواقيتها وقع الخلل، وكما قيل: من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، فإذن هذا بيت فيه توجيه من الناظم، رحمه الله، لوزن الأمور بموازينها من حيث الوقت ومن حيث الحد، من حيث المكان كل أمر يعتبر في الأمور لابد أن يراعى إحجاما أو إقداما، سواء كان المرء يريد الإقدام على أمر، أو يريد إحجاما عن أمر، لابد من مراعاة ما أشار إليه الناظم ألا وهو وزن الأمور بموازينها وحدودها وأوقاتها

ولهذا يقول بناء على ما سبق

فلا تكُنْ عَجِلاً بالأمرِ تطلُبُهُ...... فليسَ يُحمَدُ قبل النُّضْجِ بُحْرانُ

(فلا تكن عجلا) العجل من الناس هو من لا يراعي مواقيت الأمور المقدرة فتراه يأتي الأمور بطيش وعجلة فيقع حينئذ الخلل والزلل

قد يدرك المتأني بعض حاجته *** وقد يكون مع المستعجل الزلل

فالأمور لابد أن تؤخذ بالأناة وبالرفق وعدم العجلة، خاصة في الأمور التي لا تتضح للإنسان ولا تستبين له حدودها وموازينها لا يجوز له أن يستعجل، ومن يستعجل في الفتن باتخاذ القرارات يَضل ويُضل الآخرين، ولهذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه (إنها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالتؤدة) التؤدة هي الأناة وعدم العجلة (فعليكم بالتؤدة فإنك أن تكون تابعا في الخير خير من أن تكون رأسا في الشر)

ولما تحدث علي رضي الله عنه عن الفتن وخطورتها قال (فلا تكونوا عجلا مذاييع بذرا) رواه البخاري في الأدب المفرد، عجُل من العجلة، مذاييع إشاعة الكلام دون تثبت ودون روية، بذرا، أي من يبذرون الفتن ويبذرون بذور الشر، فحذر رضي الله عنه من العجلة

(فلا تكن عجلا بالأمر تطلبه) أي إذا طلبت أمرا من الأمور، تعرف على حده تعرف على وقته، تعرف على ميزانه تعرف على سبل تحصيله، ثم اسلك الطريق، سواء كانت الطريق طويلة أو قصيرة لا تستعجل، تعرف أولا على الوقت الحد الزمان الطريقة تعرف على ذلك ثم اسلك الطريق بخطى واضحة ولا تستعجل شيئا قبل وقته

(فليس يحمد قبل النضج بحران) قالوا: بُحران هذه كلمة مولّدة ليست عربية وتستعمل في الطب، قديما وهي تعني تغيّر المريض السريع، يعني قبل النضج يحصل تغير، مثلا مريض أخذ معه المرض، شدة ومعاناة وألما، وفجأة قال أنا أحس أنني مرتاح تماما، التغير السريع يقال عنه بحران، هذا يتخوف منه الأطباء لأنه قبل النضج، فلا يحمدونه (فليس يحمد قبل النضج بحران) يعني هذا التغير السريع لا يُحمد بل يتخوفون منه،لأنه جاء قبل النضج، ذكر ذلك رحمه الله مثلا للتحذير من استعجال الأمر قبل أوانه

أضرب مثلا آخر لعله يوضح الأمر بشكل أوضح، شخص يريد أن يبني بيتا من أدوار،لكنه متعجل جدا في البناء، ويريد أن ينتهي بسرعة، إذا كانت العادة مثلا ينتهي هذا البيت في سنة، هو يقول أريد أن أنهيه في شهرين،بأي طريقة كانت،المهم ينتهي، ثم يأتي على الأساسات بسرعة ولا يعتني بقواعد البنيان، وأصوله، والأمور المعتبرة فيه، المهم اهتمامه كله منصب على أن ينتهي بسرعة، ينتهي بسرعة أو لا ينتهي؟ ينتهي بسرعة لكن هل يحمد؟ مجرد ما يسكن أو يسكن غيره، يفاجؤون بالخلل تلو الخلل، (فليس يحمد قبل النضج بحران) يعني الأمور قبل أن تنضج قبل أن تستوي قبل أن تأخذ مأخذها، الصحيح فإنها لا تحمد، هذا في كل باب
ولما كان المثال الذي أورده يتعلق حول الطب في قوله (فليس يحمد قبل النضج بحران) الطبيب نفسه عندما يستعجل التطبب قبل أن يتقن العمل حرصا على ممارسة العمل، في وقت سريع يحمد ذلك أو لا؟ (فليس يحمد قبل النضج بحران)

كفى مِنَ العيشِ ما قدْ سَدَّ من عَوَزٍ...... ففيهِ للحُرِّ إن حققت غُنيانُ
(كفى من العيش ما قد سد من عوز) أي يكفي الإنسان فيما يتعلق بقوته، (العيش) وهو ما يقتاته الإنسان،ويحتاجه لقوته، فيكفي (من العيش ما قد سد من عوز) أي سد من حاجة، يعني يكفيه الشيء الذي يكون به قوته وغذاؤه وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام (من أصبح آمنا في سربه عنده قوت يومه معافى في بدنه فكأنما أوتي الدنيا بحذافيرها) عنده قوت يومه، فإذن يكفيه (ما سد من عوز) يعني ما يسد حاجته، ما زاد عن ذلك فهو فضلة، وزيادة، لكن الكفاية ما (سد من عوز) يقول عليه الصلاة والسلام (عنده قوت يومه) أي طعام اليوم الذي هو فيه.

قال (ففيه للحر إن حققت غنيان) الحر عرفنا المراد به، وأنه المراد خيار الناس وأفاضلهم، فالحر فيما سد من عوز (غنيان) أي يغنيه ويكفيه، ويجد أنه مغنيا له وكافيا له، (ففيه للحر إن حققت غنيان) أي إن حققت في الأمر وتبصرت فيه، وجدت أن الحر من الناس أي أهل الفضل والخير يعتبرون وجود قوت الانسان غنية وكفاية لأن ما زاد على ذلك فضلة

وذو القَناعَةِ راضٍ من مَعيشَتِهِ...... وصاحبُ الحِرْصِ إن أثرى فَغَضبْانُ

(وذو القناعة راض من معيشته) يعني حتى وإن قلت ذات يده فهو راض عن معيشته، لأن الغنى غنى النفس،(وذو القناعة راض من معيشته) يعني حتى لو كانت أمورا قليلة فهو راض

(وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان) الشخص الحريص على الدنيا والذي ليس له قناعة حتى ولو كان ثريا ثراء فاحشا غضبان، ولو كان عند ابن آدم واد من ذهب،لتمنى واديا آخر، فذو الحرص (وإن أثرى غضبان)

حَسْبُ الفتى عقلُهُ خِلاًّ يُعاشِرُهُ...... إذا تحاماهُ إخوانٌ وخُلاّنٌ

(حسب الفتى) أي يكفيه عقله، إذا كان صاحب عقل راشد وفهم ثاقب، حسبه

(عقله خلا يعاشره *** إذا تحاماه إخوان وخلّان)

إذا ابتعد عنه وتجنبه الإخوان والخلان يكفيه العقل، إذا كان صاحب عقل حصيف ورأي سديد

(حَسْبُ الفتى عقلُهُ خِلاًّ يُعاشِرُهُ...... إذا تحاماهُ إخوانٌ وخُلاّنُ)

وذلك لأن صاحب العقل الصحيح حسن التدبير للأمور، وحسن المعالجة لها، وإتيانها من أبوابها،والتعامل مع الأشياء، بخلاف من لا عقل عنده، فهو ينبه بهذا البيت مكانة العقل السديد وأنه يكفي صاحبه بإذن الله سبحانه وتعالى

هُما رضيعا لِبانٍ حِكَمةٌ وتُقىً...... وساكِنا وَطَنٍ مالٌ وطُغْيانُ

(الحكمة والتقى) متلازمان، تلازما رضيعا لبان،أي تلازم من رضع من ثدي واحدة، تجمعهم الأخوة وتربطهم بالرابطة الوثيقة، وهذا يضرب به المثل في الأمرين المتلازمين، يقال عنهما، رضيعا لبان كذلك المال والطغيان هما أيضا رضيعا لبان أي متلازمان {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7)}[العلق-6-7] فالمال يجر للطغيان، إلا من سلمه الله، هذا الغالب في المال أنه يجر صاحبه للطغيان، إلا من سلمه الله تبارك وتعالى ووقاه

(وساكنا وطن مال وطغيان) يعني الحكمة والتقى رضيعا لبان وساكنا وطن، وأيضا المال والطغيان رضيعا لبان وساكنا وطن، بمعنى أن كلا منهما ملازم للآخر، لا ينفك عنه

إذا نَبا بكريمٍ موطِنٌ فلَهُ...... وراءهُ في بسيط الأرض أوطانُ

(إذا نبا) كان في موطن ما فقلاه أهله، وعادوه وأبغضوه أو ربما أيضا طردوه،أو غير ذلك

إذا نَبا بكريمٍ موطِنٌ فلَهُ...... وراءهُ في بسيط الأرض أوطانُ

{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً } [النساء-97] فله (في بسيط الارض أوطان)

يا ظالما فرحا بالعزِّ ساعَدَه...... إن كنت في صلة فالظهر يقظانُ
ما استمْرأ الظُّلْمَ لو أنصْتَ آكِلُهُ...... وهلْ يلَذُّ مَذاقَ المرء خُطْبانُ
يا أيُّها العَالِمُ المَرضِيُّ سيرَتُهُ...... أبشِرْ فأنتَ بغَيرِ الماءِ ريّانُ
ويا أخَا الجهلِ لو أصبَحتَ في لُجَجٍ...... فأنتَ ما بينَها لاشَكَّ ظمآنُ
لا تحسَبَنَّ سُروراً دائماً أبداً...... مَنْ سَرَّهُ زمَنٌ ساءتْهُ أزمانُ
[إذا جفاك خليلٌ كنت تألفه...... فاطلب سواه فكل الناس إخوانُ
وإن نبَتْ فيك أوطان نشأت بها...... فارحل فكل بلاد الله أوطانُ]
يا رافِلاً في الشَّبابِ الرحب مُنتشِياً...... مِنْ كأسِهِ هلْ أصابَ الرُّشْدَ نَشْوانُ
لا تغتَرِرْ بشَبابٍ رائقٍ نظِرٍ ...... فكم تقدَّمَ قَبلَ الشّيْبِ شُبّانُ
ويا أخَا الشَّيبِ لو ناصَحتَ نفسَكَ لم...... يكُنْ لمِثلِكَ في اللَّذاتِ إمعانُ
هبِ الشَّبيبَةَ تُبْدي عُذرَ صاحبِها...... ما عُذْرُ أشَيبَ يَستهويهِ شَيْطانُ
كُلُّ الذُّنوبِ فإنَّ اللهَ يغفِرها...... إن شَيَّعَ المَرءَ إخلاصٌ وإيمانُ
وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ الدين يجبُرُهُ...... وما لِكَسرِ قَناةِ الدّينِ جُبْرانُ
[خذها سوائر أمثالٍ مهذَّبةً...... فيها لمن يبتغي التِّبيانَ تِبيانُ]
[ما ضرَّ حسَّانَها والطبع صائغُها...... إنْ لم يقُلْها قَريعُ الشِّعرِ حَسّانُ]

يا ظالما فرحا بالعزِّ ساعَدَه...... إن كنت في سَنَةٍ فالظهر يقظانُ

هنا مقام تحذير من الظلم،وبيان خطورته، على صاحبه، وأن العقوبة تحل به وإن تأخرت فإنها ستحل به، ولابد،طال الزمان أو قصر، فيقول (يا ظالما فرحا بالعز ساعده) العز السلطان والحاشية والأتباع والأعوان، إذا ساعدته هذه الأشياء على الظلم، واستمرأ الظلم، وأخذ يظلم هذا وذاك لأنه يساعده على الظلم، العز الذي معه والسلطان والسطوة والقدرة، فيقول له تنبه (إن كنت في سنة) يعني في غفلة،(فالدهر يقظان)، يعني عندما ينظر الإنسان في تقلب الأيام وتاريخ الأمم يدرك ذلك، كأن الناظم يقصد هذا المعنى بقوله (فالدهر يقظان) أي من يتأمل التاريخ يجد فيه العبر، فالعبر في تاريخ من غبر،ينظر في التاريخ ويجد العبرة فيه

أما إذا كان المعنى (فالدهر يقظان) أي لك ولأمثالك، وسيوقع بك الدهر نكالا أو كذا، فإن كان هذا المعنى فهو معنى غير صحيح فاسد، لكن المعنى كأنه ينبه إلى أخذ العبرة، والعظة من التاريخ

ما استَمْرأ الظُّلْمَ لو أنصْتَ آكِلُهُ...... وهلْ يلَذُّ مَذاقَ المرِّ خُطْبانُ

يقول لا يستمرئ الظلم، يعني لا يكون من يأكل الظلم، والمظالم ويجدها مريئة هنيئة، لو أنصف الإنسان في هذا المقام،

لوجد أنه فعلا الظالم لا يستمرئ الظلم والظلم لا يُستمرأ وضرب على ذلكم مثالا في الخطبان، الخطبان هو الحنظل عندما يجف ويصبح لونه إلى الاصفرار أقرب،تشتد مرارته، ويضرب به المثل في شدة المرارة، فمن الذي يطيق الخطبان ويستطيب طعمه، وهو أشد ما يكون في المرارة فإذا كان الخطبان الذي هو الحنظل لا يلذ مذاقه أحد إطلاقا، فالظلم كذلك، لا يمكن أن يستمرئ الظلم آكله، هذا إذا نظر الإنسان للأمر نظرة إنصاف، أما إذا نظر بنظرة مكابرة ومغالطة، فهذا أمر آخر

يا أيُّها العَالِمُ المرضِيُّ سيرَتُهُ...... أبشِرْ فأنتَ بغَيرِ الماءِ رَيانُ

هذا ثناء من الناظم، وبشارة للعالم مرضي السيرة، ومرضي السيرة هو الذي أكرمه الله بالجمع بين العلم والعمل، علم نافع وعمل صالح، فعنده علم وعنده أيضا سيرة حسنة وطيبة،فيقول مهنئا ومبشرا لمن كان بهذه الصفة، (يا أيها العالم المرضي سيرته أبشر) لك البشارة بكل خير في الدنيا والآخرة، مادمت تجمع بين العلم والسيرة الطيبة، (فأنت بغير الماء ريان)، ريان أي بما أتاك الله من علم وحكم وأخلاق وآداب، وفضائل، أنت بهذه المعاني العالية الرفيعة ريان حتى لو لم يكن عندك الماء

سبحان الله قرأت كلاما عجيبا لأحد المعاصرين،كان على غير الإسلام، ويتنقل من دين لآخر، كلما دخل في دين لا يجد فيه بغيته، ثم ينتقل لآخر، دخل في أديان عديدة، حتى من الله عليه وأكرمه بدخوله للإسلام، ثم قال كلاما عجيبا معناه قال: إن البشرية كلها عطشى، في أشد ما تكون حاجة للماء، وأنا كنت واحدا من هؤلاء العطشى وبحثت في الأديان ما يرويني، فلم أجد ما يروي عطشي إلا في الإسلام،هذا معنى كلامه، فالشاهد أن الذي يكرمه الله بالعلم والعمل ومعاني الدين العظيمة تقوم في نفسه أخلاقا وآدابا وغير ذلك،هو كما قال الناظم (ريان) ولو لم يكن عنده ماء يقصد أنه ريان بالمعارف الإيمانية والحقائق الدينية والأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة

بخلاف الجاهل ولهذا يقول الناظم

ويا أخَا الجَهلِ لو أصبَحْتَ في لُجَجٍ...... فأنتَ ما بينَها لاشَكَّ ظمآنُ

(ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج) أخا الجهل يعني صاحب الجهل ورفيق الجهل لو أصبحت في لجج أي لجج من الماء، الماء من حولك من كل جهة (لو أصبحت في لجج فأنت ما بينها لاشك ضمآن) والمراد بالظمأ هنا الظمأ الذي تحدثت عنه قبل قليل، وتحدث عنه ذلك المهتدي للإسلام، ولا يروي هذا الظمأ إلا العلم النافع والعمل الصالح.

ثم قال

لا تحسَبَنَّ سُروراً دائماً أبَداً...... مَنْ سَرَّهُ زمَنٌ ساءتْهُ أزمانُ

السرور لا يدوم، الدنيا دار امتحان وابتلاء وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما (ما ملئت دار حبرة إلا ملئت عبرة) لابد، الدنيا لابد فيها مثل ما قال الله سبحانه وتعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)} [البقرة-155-156]

، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) فهو ما بين سراء وضراء،وشدة ورخاء فإذن ينبغي التنبه لذلك

(لا تحسَبَنَّ سُروراً دائماً أبَداً...... مَنْ سَرَّهُ زمَنٌ ساءتْهُ أزمانُ)

لكن المؤمن أمره كما نبينا عليه الصلاة والسلام كله خير في سرائه وضرائه، في شدته ورخائه في صحته ومرضه في غناه وفقره في جميع أموره وهذا لا يكون إلا للمؤمن

إذا جفاك خليلٌ كنت تألفه...... فاطلب سواه فكل الناس إخوانُ

(إذا جفاك خليل كنت تألفه) إذا كان لك صاحب، وبينك وبينه صحبة قوية وجفاك، فاطلب سواه فكل الناس إخوان، يعني اطلب رفيقا سواه، لكن مع مراعاة وملاحظة ما جاء في الحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وعبارة (كل الناس إخوان) فيها توسع، والأخوة أخوة الدين كما قال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }[الحجرات-10]، ويقولون الأخوة أخوتان، أخوة دينية وأخوة طينية، الدينية التي يجمع ويربط فيها الدين الواحد دين الإسلام، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات-10] والأخوة الطينية أخوة النسب

وإن نبَتْ فيك أوطان نشأت بها...... فارحل فكل بلاد الله أوطانُ

هذا نظير قوله فيما سبق

(إذا نَبا بكريمٍ موطِنٌ فلَهُ...... وراءهُ في بسيط الأرض أوطانُ)

يعني لا ينبغي أن تضيق على الانسان به الارض إذا ضاقت في مكان ينتقل إلى مكان لعله يجد فيه رفقة أخيارا وأعمالا صالحا ومجالات انفع

يا رافِلاً في الشَّبابِ الرحب مُنتشِياً...... مِنْ كأسِهِ هلْ أصابَ الرُّشْدَ نَشْوانُ

هذا تحذير للشاب المغتر بشبابه ولم يحسن الانتفاع بمرحلة الشباب ولهذا قال (منتشيا) أي معجبا مختالا لم يحسن الاستفادة من مرحلة الشباب، ومرحلة الشباب هي مرحلة تعد من أحسن المراحل من حيث القوة والنشاط والقدرة، ولهذا لما حث النبي صلى الله عليه وسلم على اغتنام العمر قال (حياتك قبل موتك) خص مرحلة الشباب بالذكر قال (وشبابك قبل هرمك) مع أنها داخلة في قوله (حياتك قبل موتك) لكن خص مرحلة الشباب بالذكر لأنها مرحلة عظيمة جدا، فهي مرحلة القوة والنشاط، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، من استغل مرحلة الشباب استغلالا صحيحا في طاعة الله (شاب نشأ في طاعة الله)

(يارافلا) يعني مختالا (في الشباب الرحب منتشيا من كأسه) أي يجد نشوة وزهوا وإعجابا بكأس الشباب ومغترا بذلك (هل أصاب الرشد نشوان؟) النشوان السكران، يعني هل النشوان الذي هو السكران أصاب رشدا؟ بتلك النشوة؟ الجواب لا، إذن ما هذه النشوة التي تجدها غرورا وإعجابا وزهوا وعدم الانتفاع بهذه المرحلة العظيمة من مراحل عمرك، ثم أخذ ينبه رحمه الله إلى أن مرحلة الشباب لا تدوم:

لا تَغترِرْ بشَبابٍ رائقٍ نظِرٍ ...... فكَم تَقدَّمَ قَبلَ الشَّيْبِ شُبّانُ

يعني انظر إلى جميع كبار السن مروا بهذه المرحلة، مرحلة الشباب، وكانوا مثلك وربما أنشط منك، ترى رجلا مسنا لا يتحرك إلا بعصا وجهد جهيد ربما لما كان في عمرك كان أنشط منك، وأقوى منك

(فلا تغترر بشباب رائق نضر**** فكم تقدم قبل الشيب شبان)

يعني أن هذه المرحلة لها وقت وتنتهي، الإمام أحمد رحمه الله له كلمة جميلة في هذا المقام يقول (ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط) يعني هي مرحلة سرعان ما تنتهي، ولو سألت كل رجل كبير سن عن مرحلة الشباب كيف مرت يقول مرت بأسرع ما يكون كلمح البصر سريعا، فهي فعلا ستمر سريعا وتنتهي هذه المرحلة ولا تعود حتى لو تمنيت مثل ما تمنى الشاعر

ألا ليت شبابا بوع فاشتريته

ما أحد يبيع الشباب ولا اشتراه إذا انتهى، انتهى، لكن الغنيمة في استغلال مرحلة الشباب قبل أن تضيع تلك المرحلة

وكلام الناظم جميل عندما قال (فكم تقدم قبل الشيب شبان) يحدث أحد الأفاضل، أن أهله كانوا في الولادة فكان قلقا، ورآه الطبيب قلقا قال له [لماذا تقلق؟ شوف الناس هذي اللي تمشي كلها اتولدو] كلمة جميلة قال [الناس هذي اللي تمشي كلها اتولدو] يعني مروا بهذه المرحلة مرحلة الولادة كل الناس هؤلاء الذين تراهم، فذكرني بكلامه قول الناظم هنا كل الشيب أيضا كانوا شبان، كلهم مروا بهذه المرحلة

ويا أخا الشَّيبِ لو ناصَحتَ نفسَكَ لم ...... يكُنْ لمِثلِكَ في اللَّذاتِ إمعان

ينصح هنا من كان في مرحلة الشيب وهو ممعن في اللذات، ليس مقبلا على الطاعات فينصح من كان في هذه العمر وهو بهذه الصفة ممعن في اللذات يقول له

(ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك لم*** يكن لمثلك في اللذات إمعان) لماذا؟

يقول

هبِ الشَّبيبَةَ تُبْدي عُذرَ صاحبها...... ما عُذْرُ أشَيبَ يَستهويهِ شَيْطانُ

(هب الشبيبة تبدي عذر صاحبها) يقال شاب ونشيط وقوي...الخ (هب الشبيبة تبدي عذر صاحبها) أنه شاب وفي ثوران الشباب وفي قوة الشباب ونشاطه

(ما عذر أشيب يستهويه شيطان) ولهذا جاء في الحديث (ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) وذكر منهم (الأشيمط الزاني) يعني كبير السن الذي يقع في الزنا، وقوعه فيه ليس شهوة عارمة،دفعته ولم يسيطر على نفسه ولم يستطع أن يملكها، وإنما فساد فيه وانحلال وانحراف.

كُلُّ الذُّنوبِ فإنَّ اللهَ يغفِرها...... إن شَيَّعَ المرءَ إخلاصٌ وإيمانُ

وهذا بيت عظيم جدا في مكانة الإخلاص،والإيمان وأن من كان من أهل الإخلاص والإيمان، فهو حري بأن تغفر ذنوبه

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }[النساء-48] (فكل الذنوب فإن الله يغفرها) كما قال تعالى {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }[النساء-48]

(إن شيع المرء إخلاص وإيمان) شيعه أي صاحبه يوم يلقى الله سبحانه وتعالى لكن لو مات على غير الإخلاص والإيمان لم يشيعه إخلاص وإيمان فإنه لا مطمع له أبدا في مغفرة الله، ولا سبيل له لنيلها،ونيل رحمة الله،بل ليس أمامه إلا العذاب الأليم والخلود الدائم في العذاب.

ثم قال

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ الدين يَجْبُرُهُ...... وما لِكَسرِ قَناةِ الدِّينِ جُبْرانُ

(وكل كسر فإن الدين يجبره) كل كسر يحصل للإنسان، الدين يجبره، (وما لكسر قناة الدين جبران) القناة الرمح، وقناة الدين أي الإصابة التي تكون للإنسان في دينه،هذه ليس لها جبران مثل ما قيل، إن في تقوى الله خلفا من كل شيء وليس من تقوى الله خلف، التقوى والدين وأمور الإسلام هذه ليس منها عوض، إذا ذهبت ليس هناك شيء يعوضها، لكن أمور الدنيا لها ما يعوضها، يعني مثلا إنسان فقد مالا، فقد جزء من صحته، يصبر ويحتسب ويرجو ثواب الله، ويرجو من الله العوض فتأتيه أمور عديدة جدا في الدنيا والآخرة تعوضه عن هذا الذي فقده، لكن إذا فقد الدين أي شيء يعوضه؟ في فقده لدينه

(وكل كسر فإن الدين يجبره) أي كسر يصاب به الإنسان في ماله في صحته،في أي مجال، الدين يجبره، يجبره بالأجر والثواب والمصائب كفارات في شريعة الإسلام.

(و ما لكسر قناة الدين جبران) أي إذا كان الكسر في الدين نفسه فليس هناك أي شيء يجبره.

ثم ختم هذه الحكم وهذه الأبيات بقوله

خذها سوائر أمثالٍ مهذَّبةً...... فيها لمن يبتغي التِّبيانَ تِبيانُ

أي خذها أمثال عظيمة مجتمعة ملتئمة في مكان واحد صيغت بصياغة عذبة وكلمات حسنة جميلة، يجد فيها بغيته من أراد التبيان والمعرفة بالحكم العظيمة النافعة

ثم قال

ما ضرَّ حسَّانَها والطبع صائِغُها...... إنْ لم يقُلْها قَريعُ الشّعرِ حسّانُ

(ما ضر حسانها) أي ناظمها (والطبع صائغها) يعني أنها جاءت هكذا مثل ما يقال الشاعر المطبوع، تأتي المعاني تنساب معنى تلو آخر

(إن لم يصغها قريع الشعر حسان) أي إن لم يكن قد صاغها سيد الشعراء حسان ابن ثابت رضي الله عنه

وهذا مراده ليس الثناء على نفسه ولا مدح شعره،ولكن مراده أن ينتبه قارئ هذه الأبيات إلى المعاني الجميلة والحكم العظيمة التي تضمنتها هذه الأبيات.

عرفنا أن ناظم هذه الأبيات توفي في القرن الرابع يعني وفاته كانت في عام 400 هـ وقيل 401هـ

جاء بعده بقرنين شاعر توفي عام 600هـ وهو أبو البقاء الرندي، وعلى إثر الأحداث العظيمة والمصيبة الفادحة التي حلت بالأندلس، والمآسي المؤلمة فصاغ أبيات يصور ويحكي فيها تلك الأحداث الأليمة، والمآسي التي حدثت في الأندلس وكيف حصلت تلك التحولات والتغيرات والنكبات تلو النكبات التي حلت بالمسلمين في تلك البلاد أخذ يصورها في أبيات لكنه صاغها على غرار هذه المنظومة، وتداخلت بعض الأبيات من هذه الأبيات في منظومته، أدخل بعض الأبيات أو شطر بعض الأبيات في منظومته وبدأها بقوله

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمَّ نُقصانُ *** فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ *** مَن سَرَّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

(من سره زمن ساءته أزمان) مرت معنا عند الناظم في البيت 53

لا تحسبن سرورا دائما أبدا *** من سره زمن ساءته أزمان

فعدد من أبياتها تداخلت مع هذه الأبيات وصاغها على وزنها وقافيتها، لكنه حكى حقيقة أمورا مؤلمة جدا للغاية، حصلت في تلك الأيام للأندلس

قال في خاتمتها

وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إِذ برزت *** كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ

يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً *** وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ

لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ *** إِن كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ

فتحدث عن مآسي مؤلمة جدا وهذه المآسي التي يتحدث عنها وجدت وقريبا منها في سوريا الآن، في سوريا الآن حقيقة مآسي عظيمة جدا إلى أيامنا هذه الذين قتلوا بلغت أعدادهم عشرة آلاف، ومنهم أطفال رضع،بالمئات ولا تسأل عن انتهاكات الأعراض والتعديات، أمور مفجعة ومؤلمة جدا ومؤسفة للغاية، ومثل ما قال الناظم

لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ

حقيقة أمور مؤلمة، وسبحان الله أنا لا أحسن الشعر، لكنني أمس واليوم كتبت قصيدة وربما هي المرة الأولى في حياتي، كتبت قصيدة على نفس الوزن وتحدثت فيها عن وضع سوريا والمآسي المؤلمة التي فيها إن رأيتها صالحة فيما بعد نشرتها وإلا دفنتها .

وبلغت إلى الآن قرابة خمسين بيتا ولكن ليس الذي يفيد الكلام، ونتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، أن يلطف بهم وأن يجبر كسرهم، وأن يحفظهم بما يحفظ به عباده الصالحين، وأن يحفظهم من بين أيديهم، ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم، نسأل الله عز وجل أن يرد كيد أعداء الدين، وأن يجعل كيدهم في نحورهم، وأن يجعل تدبيرهم تدميرهم، نسأله جل في علاه أن يحفظ إخواننا في سوريا في أموالهم وأنفسهم وأعراضهم، نسأل الله عز وجل أن يحقن دماءهم نسأله جل وعلا أن يلطف بهم إنه جل وعلا سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونسأله جل في علاه أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وأن يردنا وإياهم إليه ردا جميلا، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلا أنفسنا طرفة عين،اللهم اغفر لنا ذنبنا كله، دقة وجله أوله وآخره، سره وعلنه، اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله إلا أنت، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى ن

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا اله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبيك محمد وآله وصحبه أجمعين.

[تم تفريغ الشرح بحمد الله تعالى]

أخوكم أبو مالك إبراهيم الفوكي

-كان الله له-

بسم الله الرَّحمن الرحيم

قصيدة عُنْوانُ الْحِكَمِ

لأَبِي الفَتْحِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ البُسْتِيِّ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

1- زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ   وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ
2- وَكُلُّ وِجْدَانِ حَظٍّ لَا ثَبَاتَ لَهُ   فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فِقْدَانُ
3- يَا عَامِرًا لِخَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِدًا   بِاللهِ هَلْ لِخَرَابِ العُمْرِ عُمْرَانُ؟
4- وَيَا حَرِيصًا عَلَى الأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا   أُنْسِيتَ أَنَّ سُرُورَ المَالِ أَحْزَانُ؟!
5- زَعِ الفُؤَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا   فَصَفْوُهَا كَدَرٌ وَالْوَصْلُ هِجْرَانُ
6- وَأَرْعِ سَمْعَكَ أَمْثَالاً أُفَصِّلُهَا   كَمَا يُفَصَّلُ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ
7- أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ   فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ
8- يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ   أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
9- أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ   فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ
10- وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي   عُرُوضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ
11- وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ   يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الحُرَّ مِعْوَانُ
12- وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللهِ مُعْتَصِمًا   فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
13- مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُحْمَدْ فِي عَوَاقِبِهِ   وَيَكْفِهِ شَرَّ مَنْ عَزُّوا وَمَنْ هَانُوا
14- مَنِ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللهِ فِي طَلَبٍ   فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجْزٌ وَخِذْلَانُ
15- مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَّاعًا فَلَيْسَ لَهُ   عَلَى الْحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأَخْدَانُ
16- مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسُ قَاطِبَةً   إِلَيْهِ، وَالْمَالُ لِلإِنْسَانِ فَتَّانُ
17- مَنْ سَالَمَ النَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ   وَعَاشَ وَهْوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذْلَانُ
18- مَنْ كَانَ لِلْعَقْلِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ غَدَا   وَمَا عَلَى نَفْسِهِ لِلْحِرْصِ سُلْطَانُ
19- مَنْ مَدَّ طَرَفًا لِفَرْطِ الْجَهْلِ نَحْوَ   أَغْضَى عَلَى الْحَقِّ يَوْمًا وَهْوَ خَزْيَانُ
20- مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَاقَى مِنْهُمُ نَصَبًا   لِأَنَّ سُوسَهُمُ بَغْيٌ وَعُدْوَانُ
21- وَمَنْ يُفَتِّشْ عَنِ الإِخْوَانِ يَقْلِهِمُ   فَجُلُّ إِخْوَانِ هَذَا الْعَصْرِ خَوَّانُ
22- مَنِ اسْتَشَارَ صُرُوفَ الدَّهْرِ قَامَ لَهُ   عَلَى حَقِيقَةِ طَبْعِ الدَّهْرِ بُرْهَانُ
23- مَنْ يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصُدْ فِي عَوَاقِبِهِ   نَدَامَةً، وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَّانُ
24- مَنِ اسْتَنَامَ إِلَى الأَشْرَارِ نَامَ وَفِي   قَمِيصِهِ مِنْهُمُ صِلٌّ وَثُعْبَانُ

25- كُنْ رَيِّقَ الْبِشْــرِ إِنَّ الْحُرّ هِمَّتُـهُ ... صَـحِيفَـةٌ وَعَلَيْهَـا الْبِشْــرُ عُنْوَانُ
26- وَرَافِقِ الـرِّفْقَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ فَلَمْ ... يَنْـدَمْ رَفِيقٌ وَلَمْ يَـذْمُمْـهُ إِنْسَـــانُ
27- وَلَا يَـغُـرَنَّـكَ حَـظٌّ جَـرَّهُ خَـرَقٌ ... فَـالْخُرْقُ هَـدْمٌ وَرِفْـقُ الْمَرْءِ بُنْيَـانُ
28- أَحْسِـــنْ إِذَا كَانَ إِمْكَـانٌ وَمَقْـدِرَةٌ ... فَلَنْ يَـدُومَ عَلَى الإِحْسَـــانِ إِمْكَانُ
29- فَـالرَّوْضُ يَزْدَانُ بِـالأَنْوَارِ فَـاغِمَـةً ... وَالْحُرُّ بِـالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَـــانِ يَزْدَانُ
30- صُـــنْ حُرَّ وَجْهِكَ لَا تَهْتِكْ غِلَالَتَـهُ ... فَـكُلُّ حُـرٍّ لِحُـرِّ الْـوَجْـهِ صَـوَّانُ
31- فَـإِنْ لَـقِيـتَ عَـدُوًّا فَـالْـقَـهُ أَبَـدًا ... وَالْوَجْهُ بِالْبِشْـرِ وَالإِشْـرَاقِ غَضَّـانُ
32- دَعِ التَّكَـاسُـــلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَـا ... فَلَيْسَ يَسْـعَـدُ بِـالْخَيْرَاتِ كَسْـلَانُ
33- لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَعْرَى مِنْ تُقًى وَنُهًى ... وَإِنْ أَظَـلَّـتْـهُ أَوْرَاقٌ وَأَفْـنَـانُ
34- وَالـنَّـاسُ أَعْـوَانُ مَنْ وَالَـتْـهُ دَوْلَـتُـهُ ... وَهُـمْ عَـلَـيْـهِ إِذَا عَـادَتْـهُ أَعْـوَانُ
35- (سَـحْبَـانُ) مِنْ غَيْرِ مَـالٍ (بَـاقِـلٌ) ... وَ(بَـاقِـلٌ) فِي ثَرَاءِ الْمَالِ (سَـحْبَـانُ)
36- لاَ تُـودِعِ السِّـــرَّ وَشَّـــاءً يَبُـوحُ بِـهِ ... فَمَـا رَعَى غَنَمًـا فِي الـدَّوِّ سِــرْحَـانُ
37- لَا تَحْسَـبِ النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ ... غَـرَائِزٌ لَسْـــتَ تُـحْصِـيهِنَّ أَلْـوَانُ
38- مَـا كُـلُّ مَـاءٍ كَصَـــدَّاءٍ لِـوَارِدِهِ ... نَعَمْ، وَلَا كُلُّ نَبْـتٍ فَهْوَ سَـــعْـدَانُ
39- لا تَخْدِشَـنَّ بمَطْلٍ وَجْـــهَ عارِفَــــةٍ ... فالبِـــرُّ يَخْدِشُـــــــهُ مَطْــــلٌ ولَيَّانُ
40- لا تَسْـــتَشِـــرْ غَيْرَ نَـدْبٍ حَازِمٍ يَقِظٍ ... قَدِ اسْتَـوَى فِيـه إِسْـــرَارٌ وَإِعْلَانُ
41- فَلِلتَّدَابِيرِ فُرْسَـــانٌ إِذَا رَكَضُـــــوا ... فِيهَـــا أَبَــرُّوا كَمَـــا لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
42- وَلِـلْأُمُـورِ مَـوَاقِـيـــــتٌ مُـقَـدَّرَةٌ ... وَكُـلُّ أَمْـرٍ لَـهُ حَـدٌّ وَمِـيـزَانُ
43- فَلَا تَـكُنْ عَـجِلًا فِي الْأَمْرِ تَـطْلُـبُـهُ ... فَلَيْسَ يُحْمَـدُ قَبْلَ النُّضْـجِ بُحْرَانُ
44- كَفَى مِنَ الْعَيْشِ مَا قَدْ سَـدَّ مِنْ عَوَزٍ ... فَفِيـــهِ لِلْحُـــرِّ إِنْ حَقَّقْـــتَ غُنْيَانُ
45- وَذُو الْقَنَاعَةِ رَاضٍ مِنْ مَعِيشَـتِــــهِ ... وَصَاحِبُ الحِرْصِ إِنْ أَثْرَى فَغَضْبَانُ!
46- حَسْـــبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خِلًّا يُعَاشِـرُهُ ... إِذَا تَـحَـامَـاهُ إِخْـوَانٌ وَخِـلَّانُ
47- هُمَـا رَضِـيعَـا لَبَـانٍ: حِكْمَـةٌ وَتُقًى ... وَسَـــاكِـنَـا وَطَـنٍ: مَـالٌ وَطُـغْـيَـانُ
48- إِذَا نَـبَـا بِـكَـرِيـمٍ مَـوْطِـنٌ فَـلَـهُ ... وَرَاءَهُ فِي بَسِـــيطِ الْأَرْضِ أَوْطَـانُ
49- يَـا ظَـالِمًا فَرِحًـا بِـالْعِزِّ سَـــاعَـدَهُ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِـنَـةٍ فَـالـدَّهْرُ يَقْظَانُ
50- مَا اسْـتَمْرَأَ الظُّلْمَ لَوْ أَنْصَـفْتَ آكِلُهُ ... وَهَلْ يَلَـــذُّ مَـــذَاقَ الْـــمَرْءِ خُطْبَانُ
51- يَـا أَيُّهَـا الْعَـالِمُ الْمَرْضِـيُّ سِـيرَتُـهُ ... أَبْشِـــرْ فَـأَنْـتَ بِـغَـيْرِ الْمَـاءِ رَيَّـانُ
52- وَيَا أَخَا الْجَهْلِ لَوْ أَصْـبَحْتَ فِي لُجَجٍ ... فَـأَنْـتَ مَـا بَـيْنَهَـا لَاشَـــكَّ ظَمْـآنُ
53- لَا تَـحْسَـــبَنَّ سُـــرُورًا دَائِمًـا أَبَدًا ... مَـنْ سَـــرَّهُ زَمَـنٌ سَـــاءَتْـهُ أَزْمَـانُ

54- إِذَا جَـفَـاكَ خَـلِـيـلٌ كُـنْـتَ تَـأْلَـفُـهُ فَـاطْلُبْ سِـــوَاهُ فَكُلُّ النَّـاسِ إِخْوَانُ
55- وَإِنْ نَبَـتْ بِـكَ أَوْطَـانٌ نَشَـــأْتَ بِهَـا فَــارْحَـلْ فَـكُـلُّ بِـلَادِ اللهِ أَوْطَـانُ
56- يَا رَافِلاً فِي الشَّـبَابِ الرَّحْبِ مُنْتَشِـيًا مِنْ كَأْسِـــهِ، هـلْ أَصَـــابَ الرُّشْـــدَ
57- لاَ تَغْتَرِرْ بِشَـبَـــابٍ رَائِـــقٍ نَضِـــــرٍ فَكَـمْ تَقَــدَّمَ قَبْـلَ الشَّـيْــبِ شُبَّانُ
58- وَيَا أَخَا الشَّـيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ يَكُنْ لِمِثْلِـــكَ فِـــي اللَّذَّاتِ إِمْعَـــانُ
59- هَبِ الشَّـــبِيبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَـــاحِبِهَا مَا عُذْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَـــانُ ؟
60- كُلُّ الذُّنُـــوبِ فَـــإِنَّ اللهَ يَغْفِرُهَـــا إِنْ شَـيَّعَ الْمَـــرءَ إِخْلَاصٌ وَإِيمَـــانُ
61- وَكُلُّ كَسْـرٍ فَـــإِنَّ الدِّيـــنَ يَجْبُـــرُهُ وَمَا لِكَسْــــرِ قَنَـــاةِ الدِّيـــنِ جُبْرَانُ
62- خُـذْهَـا سَـــوَائِـرَ أَمْـثَـالٍ مُـهَـذَّبَـةً فِيهَـا لِمَنْ يَبْـتَـغِي الـتِّـبْـيَـانَ تِـبْـيَـانُ
63- مَا ضَـرَّ حَسَّـانَهَا -وَالطَّبْعُ صَـائِغُهَا- إِنْ لَمْ يَصُـغْهَا قَرِيعُ الشِّـعْرِ حَسَّـانُ

****